العابرون

رواية

محمد إبراهيم طه

تحضرون دائما .. ويغيب المقيمون.

إلي: إبراهيم طه، مرة ثانية.

بلا مقدمات فيما يبدو، ارتفع مؤشر الحرارة. وقعت عيناه عليه صدفة فراعته السخونة. توقف. خاض في أرض زراعية. طرق أكثر من بيت. بدا أن أحدا لا يقيم هنا. كان الطريق موحشا. لا سيارات، ولا مارة ولا ميكانيكي. فقط: سماء قريبة، وشمس تسطع في وجهه. من مساحات النخيل خمن أنه في نطاق المرج، خارج القاهرة. يخوض من بيت إلي بيت، يطرق الأبواب المتناثرة بفزع ويتساءل: ما الذي جعله يسلك طريقا دائريا كهذا لم يفتتح بعد، إلي كلية طب عين شمس، في يوم الامتحان الشفوي لأمراض النساء والولادة؟

لاح من بين النخيل باب موارب لكوخ منخفض، أسفل أسلاك الضغط العالي. فيما بدا أنه لا يوجد أحد بالداخل، وقبل أن ينادي، جاءه الصوت واثقا:

ـ لا تجيء إلا عندما نعطل سيارتك؟

تحقق من مصدر الصوت. لا أحد هنا يعرفه، أول مرة يسلك هذا الطريق. تراجع للخارج. تهادى الصوت معاتبا، كأنه لا يوجه كلامه لأحد:

ـ يعني لا تجيء إلا حينما نطلبك.

عرفه:

ـ غير معقول.. شيخ سيد؟

ارتمي في حضنه، يقبله ويعانقه، متعجبا وغير مستوعب بعد لهذه الصدفة. نقره في رأسه وابتسم:

ـ من قال يا ولد إنها صدفة؟

أربعة عشر عاما مرت منذ افترقا لم يره. قال في نفسه: إنه سينتهي من امتحان اليوم وسوف تتكرر زياراته.

ــ هل تظن أنها ستتكرر فعلا؟

ــ وما المانع؟ عرفت مكانك أخيرا.

لم يرد وحدق في سقف الكوخ. أوحشته كلماته الرامزة وصمته المتأمل. سأله عن البلد، وأحواله، وأحوال الإخوان، وقبل أن يوضح أنه علي موعد ضروري، وأنه سيعيد الأيام الخوالي، بحثت عيناه عن ماء فلم يجد. فكر ألا يطيل الكلام ويستأذن، لكنه سأله:

ــ لم تسألني لماذا طلبتك؟

ــ وهل طلبتني؟ ..جئت لأمتحن وسخنت السيارة فنزلت أبحث عن ماء.

لاحظ أنه مريض بالكبد، وأنه يتوه غالبا كأنه يحلم. برزت بطنه من تحت الجلباب، واتخذت ملامحه الشاحبة لون الأرض. تجبره كرشة النفس علي تقسيم الجمل والاستراحة فيما بينها فترات طويلة.

ــ متأكد؟

ــ يعني..

ــ هل تذكر آخر كلمة بيننا.. منذ أربعة عشر عاما؟

ــ طاقية واحدة لا تكفي رأسين.

ــ هي كذلك .. لا تكفي.

ازدحمت شقته ذات الحجرتين بزواجه، ومجيء إبراهيم، وغضب أخته، ثم طلاقها بطفليها، وأبيه وأمه وأخوته. نزح إلي المرج، عند أهل زوجته. أخذ إجازة طويلة من عمله وسافر إلي العراق. في مقام سيدي عبد القادر الجيلاني سمي مولوده الثاني محمد. أمام مقصورة سيدى أحمد الرفاعي سمى البنت أسماء. لم

يعد بنقود. عاد كما ذهب بنفس المسبحة ذات العداد الذي يعد حتى مائة ألف، ونفس الجلباب الذي رآه عليه منذ أربعة عشر عاما.

في عجلة سأله عن أم الأولاد. قال إنها الآن قادمة من الحي. تناطح فيهم ويناطحون فيها، من أجل الكهرباء. تقضي النهار هنا والليل عند أهلها. دخلت وهي تردد بزهق ما يقولونه لها كل يوم:

ــ مخالف يا سيد وعشوائي وتحت أسلاك ضغط عال!

ــ هذا النور .. ألا يكفي؟

ــ نريد كهربا يا سيد .. كهربا.

ــ بعد أن أموت.. ربنا سيفرجها.

ــ يا سيد تجاوزت الأربعين .. فكر مرة فينا.

اقترح لينهي محاورة قد تطول، أن يذهب الشيخ سيد إلي الحي بنفسه. لم يكن خافيا أنها كانت تحكّمُه، ولم يكن خافيا أنه كان متعجلا، فبدا اقتراحه كأنه حُكمٌ، حتى أنه شعر بذلك، فوعده بأنه سيذهب قريبا.

ابتسم ليخفف من حدة حُكمه:

ــ يعني قريبا إن شاء اللهَ؟

ممتثلا أومأ برأسه، ففرحت زوجته التي حفيت قدماها من السؤال عن الطلب الموقوف في الحي منذ سنوات، لأنه أخيرا سيريهم نفسه، ليعلموا أنه صاحب المكان، الذي يضيئه تماما الآن الضوء القادم من الكوة الخلفية بالكوخ. تاه قليلا وهو مضطجع علي سريره. نفس السرير الذي كان في الشقة ذات الحجرتين، تتحرك فقط مسبحته كأنه يسبح في سره، أو كأنه في غيبوبة، ينتبه كعادته منتفضا كلما يصدر صوت يقطع عليه سكونه قائلا : الله. كي لا يفوته الامتحان، استأذن مواسيا ومشجعا :

ــ شد حيلك يا عم الشيخ..

ــ لم تسألني لماذا طلبتك؟

ربت كتفه بإشفاق وهو يقوم:

ــ سأنتهي من الامتحان وأعود لنتكلم براحتنا.

فيما وضح أنه لم يعد قادرا علي شيء، كان إبراهيم ومحمد ينظران نحوه وهو خارج، وأمهما تحثهما أن يسلما عليه، وأسماء تركض بالخارج. أربعة عشر عاما لم يره معاينة إلا الآن. دون أن يستأذن، كان يصعد إلي مقعده العلوي، أو الشقة المزدحمة ذات الحجرتين. تذكر وهو بجوار السيارة أنه طرق أبوابا كثيرة لم يرد أصحابها، فتساءل في نفسه هل استأذن وهو يدخل الكوخ؟

نسي الماء، وأدار السيارة فدارت. فضل ألا يعود حتى لا يتأخر أكثر. أمام الكلية كان قد تأخر عن الموعد ساعة كاملة. هل يلغى الامتحان؟ وجد الدموع تهطل من عينيه حقيقة، وهو يصعد السلالم، و يهرول في الردهات. وهو يعتذر عن التأخير بسبب حالة وفاة، قالت سكرتيرة قسم النساء التي رأته مضطربا:

ــ ما الذي جاء بك اليوم يا دكتور.. ألا تعلم أن الامتحان غدا؟

لم تكن صدفة إذن حين رفع عينيه عصر ذلك اليوم البعيد، وسط الحقول فرآه واقفا أمامه ــ كأنه منذ فترة ــ مادًّا يده. سلم بحـــرارة المعتذر عن الغفلة، فقال بعض الكلمات وكان قد أنهي لتوه القـــرآن حفظا وتلاوة. وضع يده في يده مرة أخري وأكد: هل قبلت؟ قـــال: ماذا؟ فقال: العهد؟ هز رأسه، فسأل: وهل تصونه؟ تمـــتم مجـــاملا: نعم. ما أعطيته لك غال. قال: شكرا، فابتعد حتى تلاشى في الحقول الواسعة بين العصر والمغرب.

سأل نفسه: ما العهد؟ فقال له في اليوم التـــالي: حـــين تـــراودك الأسئلة الجوفاء عن نفسك، دعها وسلم الأمر إليه. قال فـــي نفـــسه: وما الذي أدراه؟ فأنشد أول ما لقيه في اليوم التالي:

قلوب العارفين لها عيون   تري مالا يراه الناظرونا

جال بخاطره: لماذا اختارني؟ فقال في نفس اللحظة: " ليس لـــي من الأمر شيء .. اسأله، يطلبه المجتهدون فلا يصلون، ويطلب هو من يريده".

صار ملتقاهما الحقـــول، والمـــصليات المفروشـــة بقـــش الأرز بدرجاتها الحجرية الهابطة إلي النهر، بين العصر والمغرب. أوقات هادئة ومترامية وناعمة وموائمة لتأملاته وأســـئلته التـــي يطرحهـــا وينزعج منها أستاذ الدين، عمّن أخرج آدم من الجنة، فيقول: إبليس. ومن الذي وسوس إلي إبليس ــ وكان خيِّرا قبل ذلك ــ بأن يعصي ربه ويوسوس إلي آدم؟ فيضربه أستاذ الدين ويخرجه من الحـــصة ويجيبه هو. وحين سأله عن معني الـــشطر الثـــاني مـــن الحـــديث الملصق خلف باب حجرته: حسين مني وأنا من حـــسين؟ قـــال : لا يدخل أحد الحضرة المحمدية إلا عن طريق الحسين أولا، أفهمت؟

كماء البحر، كلما شرب منه يشعر بـــالعطش. شـــيخ ومريـــد لا يفصل بينهما سوى خمس سنوات، إلا أنه أخبره بالكثير عن العشرة الكرام البررة، وخير الناس: الحمزة والعباس، وعن الــسبطين ذوي الإخلاص والصفا، ومن تناسل منهما، وعن أختهما الــسيدة زينـــب وعن أمهما السيدة فاطمة الزهراء، وعن جـــدتهما الــسيدة خديجـــة الكبري، وعن السيدة عائـــشة أم المـــؤمنين، وأربعـــة ملائكـــة الله المقربين، وأربعة خلفاء رسول الله الراشدين، وأربعة أئمـــة الـــدين، وأربع سيدات نساء العالمين، وعن الأربعة الأقطاب وعـــن الـــسبعة العلماء. وذكر له أهل السلسلة، والباقين من المائة وأربعة وعـــشرين ألفا من أهل الطرق الصوفية، وأهل الديوان.

في المصلي، كانا ينهيـــان أوراد العـــصر: الأســـاس، الفـــواتح، التحصين الشريف، صلاة بن بشيش، الحـــزب الـــصغير والحـــزب الكبير، ثم يتركه لأوراده الأخرى ويقرأ هو كتب الفقـــه والحـــديث والسيرة والتوحيد. لا يخرجهما سوى المغرب المتناهي من المـــآذن البعيدة. قال: ظمآن، فنزع الكتب من يده وقال:

ــ لن يرويك سوى علم موهوب من لدن علام الغيوب.

ــ لا أفهم.

ــ من تشرَّع ولم يتحقق فقد تزندق، ومن تحقق ولم يتشرَّع فقـــد تفسَّق.

لم يفهم، فأخذه من يده:

ــ آن الأوان أن تسلك.. الرحمن فاسأل به خبيرا.

أعطاه الحزب السيفى وحزب البحر، والصلاة المحمدية، وقـــال إن الخلوة لم تعد شرطا، والأوراد تقرأ في أي مكان، الـــذكر طـــلاء القلب وجلاؤه، هو أسهل الطـــرق التـــي تفـــضي إلـــي المكاشـــفة

والمشاهدة والمسامرة والمحادثة، وما المكابدة إلا مطية للتنقل في المقامات والأحوال والمعارف، وما السكينة والخلوة والجلوة إلا إسراء الروح من عالم الشهادة إلي عالم الغيب، ومعراج التلقي والتداني والتدلي.

كأنما كان يجذبه إلي عالم بعيد، ساحر ومبهج ومريح، لم يندمج مع أحد غيره، ولم يسأل عنه سوى مرة واحدة: عم الشيخ سيد موجود؟ فخرج أعمامه وسألوا: "ومن يكون عمك الشيخ؟" فقال: "عمي الشيخ سيد عبد العال" فضحكوا جميعا، ونادوا في صوت واحد: " واد ياسيد .. .. يا شيخ سيد.. يا عم الشيخ سيد.. يا مولانا.. ضيف" كأنما كانت عيناه اللامعتان تعتذران وهو يفتح الباب، ويتلو: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون" ثم أعطاه حزب النصر، بعدها لم ير منه ـــ وقتما يجيء بخاطره ـــ سوى أن يطل من شباكه قبل أن ينادي بثانية واحدة قائلا: "اصعد"، حتى بعد أن تسلم عمله في الضرائب العقارية، وأجبر أعمامه أباه علي بيع نصيبه في بيت العائلة، والإقامة بالأسرة في شقة من حجرتين، كان يزوره بها، وكانت تتسع له ولزوجته وأبيه وأمه وأخوته وأخته المطلقة وابنيها، قبل أن يضغط الجرس بثانية واحدة، كان الباب يُفتح: "ادخل!"

من الغرب إلي الشمال انحنى فرع دمياط فجأة، فصنع ساحلا عريضا من الأرض الخصبة، يفصل المجرى الحقيقي عن الطريق المرتفع، وبدت من فوقه لأول وهلة جزيرة أولاد فهمي المزروعة بأشجار الموز الضخمة كحوض من عشب وسط الماء. كانت الجزيرة تصير إلي اتساع كلما هبط الدرجات الحجرية من الطريق إلي الساحل، ويصير الموز أكثر ارتفاعا وخضرة، حتى يحجب

القرى التي في الجانب الآخر تماما. وما إن يجتاز ساحل الطمي المزروع بالذرة ونباتات الزينة ويصل إلي المجرى الحقيقي، فإن الموز الذي يكــون قد حجب تماما شمس الغروب، يبدو قريبا جدا، حتى إنه لا يصدق أن هذا المجرى الذي يفصله عن الموز يبلغ اتساعه مائة وتسع وخمسين ذراعــا، إلا بعد أن ينظر خلفه فيرى الساحل ثم الطريق المرتفــع بمائـــة وثـــلاث وأربعين درجة حجرية . يتعجب وهو يهبط خمس درجات حجرية أخـــرى حتى يصل إلي شفا الماء، حيث أقام مصلاه المواجه تماما لجزيـــرة تبلـــغ مائتى فدان مزروعة بالموز. كان يتأمل بهمة فترات طويلة، منتظـــرا أن يتلألأ النهر بالألوان، وينفتح الأفق، فيحدث إسراء الأسرار لا الأســـوار ومعراج الأرواح لا الأشباح، فتحدث الرؤية القلبية لا العينية. ينتظر بوجد محدقا في الماء، حيث لا وجود لبشر ولا شعور بوقت، حتى يقوم حزينـــا لا يعرف ما الذي يمنع سفر القلب وســـفر الـــروح. لا يحـــس بـــالبرودة والخوف إلا وهو يرتقي درجات السلم الحجري، حين يكون عليه أن يأخـــذ الطريق شمالا إلي المدينة، وسط وشوشات عيدان الـــذرة المخيفـــة علـــي جانبي الطريق، تلمع أوراقها كنصال في ضوء القمر، ويكون وحده كـــآت من الغيب، لا يدرك الوقت والاتجاه.

حين انبثق من وسط الطريق جنديان، أحدهما ملثم والآخـــر مطمـــوس الملامح، كانا يسيران بظهريهما أمامه صامتين، لا يبتعدان ولا يقتربـــان. وحين لاحت المدينة من بعيد وترامى ضوؤها الشحيح علي تراب الطريق المصاحب للنهر، تلاشيا في صمت. في اليوم التالي حين قابله سأله:

ـــ لم خفت ممن أرسلتهما ليوصلاك أمس؟

لم يرد، وهز رأسه متعجبا.

قطعة صغيرة مثلثة. لا تصلح لشيء، كفضلة الثوب. بقيت من حقل كبير. غضب عليها جميع المشترين، لوقوعها أسفل أسلاك الضغط العالي، واحتمال ضياعها ضمن طريق دائري تحت الإنشاء، ولصعوبة المباني فيها بشتى الطرق. قطعة مثلثة ظل الوصول إليها من داخل القاهرة مرهقا، مرورا بعزبة النخل ثم قرى وعزب أخرى وطرق ملتوية علي ترع تشق المرج أو تلتف حولها. وكان هو الذي يتكلم عن ثمنها الزهيد لأقاربه، لا يعرف كيف يصف طريقة الوصول إليها، حتى انتصبت فجأة أمام الطريق الدائري كوخا مثلثا.

كان يقود مسرعا حتى يلتقي به، وقد حز في نفسه أن تكون آخر خطاياه أنه لم ينتبه لماذا طلبه، وأن استقباله لم يكن موجها علي نحو ما هذا الصباح للتلقي. خشي أن يكون في الأعمال وهو في الأحوال، في الظاهر يجري وهو بالباطن يسري، يجاهد وهو يشاهد. كان علي الطريق يبحث بين البنايات العشوائية المتناثرة في الحقول الجانبية عن كوخه المثلث.

المدى أمامه وحوله، فأسلم كفه في راحتها وهـي ترفـل أمامـه كقطعة من بللور. لم يشعر بقدميه تلمسان طريقـا، كأنمـا يـسبح. تجاوزت به ثلاثة وثلاثين حجابا، وبدا كأنه رأى سيد عبـد العـال وسط من مر بهم. توقف وناداه. كان منهمكا كعادته. يتمتم بـدعوات مبهمة، دون أن تتحرك شفتاه. يحدق بغبطة لموكبه. وحين انتـوى من فرحته أن يسلم عليه ويقبله، انفلتت يده منها فارتدت راحتها إلي صدرها، فانفرط العقد وأصابته نقرة بِنْصَرِهِ فـي رأسـه؛ فـصرخ وأمسك رأسه وسقط:

ـ آه يا رأسي!

ارتمي علي حبات عقدها الذي انفرط، فانطفأ كـل شـيء كمـا ينطفئ مصباح، وفقد إلي الأبد فتاة الضوء. أفاق مجردا من غلالاته السندسية، يحدق في أرض الحجرة عن حبات عقد انفرط لتوه. كان رأسه مربوطا ما يزال من أثر نقرته، والحجرة مزدحمـة بـإخوان يهنئونه علي السلامة، وصيادين يقبلان رأسه ويقسمان بالله أنهما لم يمساه، حين تعاركا علي القارب بعيدا عنه. همس شيخه في أذنـه: إنها كانت نقرة غيظ. لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك وهـو يـراه مشرفا علي الوصول ثم يفكر فيما عداه، حتى لو كان شـيخه. ثـم دمعت عيناه واقترح أن يقيم حضرة.

عاونه المنشدون بصوتهم المنغم في ضـبط الإيقـاع، أللهُ.. أللهُ. مُطت اللام مطا شديدا لتخرج الهاء مـع نهايـة الالتفـات لليمـين، فتهادت الأجساد في صفي البُسْط بطيئة، ثم لـم تلبـث أن التأمـت، فتمايل كل صف كتلة واحدة، في اتجاه معـاكس للـصف المقابـل، ليصبح اتجاه الصفين ـ فيما لو انفردا ـ واحدا. انـضبط الإيقـاع وتسارع: أللهُ، أللهُ، فيما لم يزل الذاكرون في الظلمة الخافتة بعيونهم

المفتوحة بكامل وعيهم. تسارع أكثر. نقراته المحفزة والمتسارعة أدغمت اللامين في واحدة، ثم أسرعت فلم يعد بالإمكان سوى نطق الألف والهاء، كأنهم يتأوهون، ينحبس هواء الصدور خلف لسان المزمار، ثم يخرج مكتوما دفعة واحدة. يغدو الذكر لهاثا وصعودا إلي الذرى فتتوارى نقراته في الخلفية، تغمض العيون، ينبثق الضوء الداخلي، كعود ثقاب يشتعل، يضيء أفقا أوسع بكثير من مكان الحضرة، تتحرر الأرواح من الأجساد، تتبع الضوء، تسبح في فضاء وملكوت آخر، وتخف الأجساد، كل حسب مقامه، فيغيبون عن الحضرة الأرضية، يتحررون من سجن الجسد، ويتناهى الذكر إليهم من بعيد كأنه لأناس خارج هذا الكون، حتى تجذبهم يده بخيوط رفيعة إلي الحضرة الأرضية، ليعود وعيهم تدريجيا بالمكان بإيقاعه الهادئ. أنشد قصيدته الفاصلة قبل الطبقة الثانية من الحضرة، انتشوا بالسماع، وتمايلت أجسادهم في شجن القصائد النورانية، بعضهم يدمع، وبعضهم ينهنه والآخر يعوي كمن قرصه ثعبان.

قلوب العارفين لها عيون   ترى ما لا يراه الناظرونا

قصيدته المفضلة قبل أن تبدأ أمتع الطبقات، الثالثة، حيث تتحرر فيها ــ تحديدا ــ الأرواح من أبدانها التي لم تكن قد استعادت ثقلها بعد، وتكون الأرواح التي جالت في العلا متحفزة للانطلاق مرة أخري في زمن أقل.

بدأ الإيقاع سريعا ومتلاحقا، الأجساد ساخنة بفعل الطبقتين الفائتتين، فبلغ الذرى من بلغ بسرعة، وتجاوزت الأرواح الحجب وتخطت سماوات، واجتازت مقامات وأحوالا، فيما لاح ــ بعيدا وحميما ــ إيقاعه السريع، المتلاحق، كخلفية:

ــ أنا العرش. أنا الكرسي. أنا القلم..

ظل يترجم، كأنه يزعق، ولم يكن إيقاعه ــ وهو يركز في وجهه بنظراته ــ غير أصوات بعيدة غير مفهومة، فيما كان الضوء اللامنتهى مبهرا بامتداد أفق بصره. أجلسه بسرعة، وبدا متعجلا يتلو الفواتح. كان في نشوته يتمايل ما يزال، غير منتبه للقلق في عيون الإخوان، أو للدموع في عينيه وهو يختتم ويسلم عليه هامسا:

ــ أمن اللوح المحفوظ كنت تقرأ؟

هز رأسه، فقال دامعا، وهو يحتضنه طويلا:

ــ طاقية واحدة إذن لا تسع رأسين.

ولم يره بعد ذلك.

عند الكوخ المثلث، كانت زوجته تشير في هلع من بعيد فتوقف، قالت إنه متعب جدا وإنه لم يعد يعرفها، وحين دخلت عليه بالعلاج بكي وصرخ كطفل:

ــ لماذا تدخلين؟ ألا تعرفين أن معي ضيوفا؟

سألها عمن معه، فارتعدت شفتاها وقالت: لا أحد. بلا استئذان دخل عليه كعادته، فوجده يحدق في جوانب الكوخ كأنه يسلم بعجلة علي ضيوف جالسين ويقبل يده الفارغة إلا من المسبحة: سيدي عبد القادر، سيدي أحمد، سيدي إبراهيم.

نادى عليه:

ــ يا عم الشيخ سيد.

كان قد انتهى، فانفرد جسمه وصار بمواجهة الباب المفتوح تماما حين قال:

ــ لبيك.

وفاضت روحه قبل أن يعرف لماذا طلبه.

لم يكن يخالجه هذه اللحظة سوي شعور مبهم، وشوق قديم يجرفه بقوة إلي البعيد، فيهبط الدرجات الحجرية. يغتسل بماء النهر، ويصعد ليفترش قش الأرز ويتمدد، تحت سماء واسعة. ليس أمامه سوى الماء وجزيرة الموز، ولا أصوات سوى لطيور وحفيف أشجار وخرير ماء. ليكتشف كم كان كحمار الرحى الذي كشف عن عينيه الغطاء، فراعه أنه ظل يخوض دون أن يدري طوال هذا الوقت حول العيادة والمستشفي والبيت، في دوائر من رمال ناعمة ومتحركة.

فتح عينيه كأنما بعد نوم كسول وطويل. تساءل: هل تزوج فعلا هذه السيدة التي تنام بجواره، ومتى أنجب هذه البنت وهذين الولدين، وركب هذه السيارة الجديدة التي أوشكت أن تحترق أول أمس بعد أن باع القديمة، هل حدث كل هذا فعلا، أم أن الأمر كله محض حلم سينتهي بمجرد أن يفتح عينيه؟ تأكد أن كل ما مر قد حدث بالفعل حين فاجأته في الأدراج قسيمة زواج وشهادات ميلاد أطفال نائمين وعقود بيت وأوراق سيارة واقفة بالأسفل. في الطريق إلي المستشفى، ود لو يجري ويصرخ بأن ما حدث لم يكن هو الذي يريده، غير أنه كان كطاعن في السن، ثقيل الخطى، كلما رفع قدميه غاصتا أكثر.

كأنما يفيق من نوم طويل أو مخدر عام، وضع الورقة أمام المدير وخرج متحررا من ثقله كطائر يقلع عن الأرض ويحلق. يعاين الأشياء فتنطبع في ذاكرته بيضاء ونظيفة كما رآها أول مرة: شارع الشبان، المركز القديم، النفق، الكورنيش بأشجار البنسيانا الكثيفة والبنك الأهلي لم يفتح أبوابه بعد. ثمة موسيقي تتبعه ونغم غامض، وإيقاع أشبه بركض الأحصنة أمام الحناطير في الصباح.

قبل أن ينحرف إلي شارع المديرية الذي يفصل مجلس المدينة عن محلج العطار، تعالى الإيقاع الذي بدا أنه لدُفّ، وتجاوزه الدرويش المداح علي سطح الكارو، وانحرف إلي نفس الشارع. لم يكن يتوقع في التفاتته البسيطة للخلف قبل أن ينحرف يسارا ليعبر الطريق المقابل ــ كما يفعل حين ينظر في مرآة سيارته ــ أن يرى المداح الذي دأب علي رؤيته يذرع شوارع المدينة من جنوبها إلي شمالها لعشرين عاما بالكارو بمثل هذا الوضوح. ولم يكن قد تبين ــ إلا بعدما تلاشت ملامحه في شارع المديرية ــ أنه غيَّر اتجاهه اليوم. كان المداح يفرد ذراعيه ويتطوح في وَجْدٍ بجلبابه البني علي قميص أبيض ولاسة خضراء وشال، دون أن يتجهً بنظره إلي المارة.

على السلم المتسع راعه وشيش الصمت، فتوقف عن الصعود. لا أنات لمرضي ولا صخب مرافقين يطالعه علي بسطات السلم أو أمام الأبواب، ولا دواب مربوطة بحديد شبابيك الدور الأرضي. لم ينتبه حتى لنصبة نجاح بائعة الطعمية التي وقفت فارغة اليوم بجوار البوابة. كأنها غير موجودة. صباح مختلف. فكر أن ينزل ويتأكد من واجهة العمارة. لكنه شغفا بالخفة التي اعترته، واصل الصعود، مستعيدا لحن الدرويش الذي يغني لنفسه، دون أن يرد بذهنه ما إذا كانت الورقة البيضاء إلا من سطر واحد علي مكتب المدير إجازة أو استقالة.

عند باب العيادة الذي كان مغلقا لم يجد المفاتيح. لأول مرة يري الباب مغلقا. قبل أن يقرر النزول، دفعه فانفتح. هل نسيته نازك مفتوحا من أمس؟ ما لزوم المفاتيح إذن؟ ابتسم في نفسه وبدا خفيفا كمن حط عن كتفيه حملا كبيرا حين تصور أن تكون المفاتيح بهذا الثقل. أسند ظهره علي الكرسي وفرد ذراعيه علي امتدادهما وتنفس

بعمق ومتعة كما لم يتنفس من قبل. كان يعلم أنه جاء إلي هنا ليتزود بشيء قبل أن يواصل رحلته القديمة إلي انحناءة النهر، أمام جزيــرة فهمي الممتلئة بالموز، أو جزيــرة علمــا الممتلئــة بأشــجار الأرو والفاكهة.

كصورة وضعت توا في إطار، أطلت من مستطيل الباب امــرأة. لم يشعر بخطواتها علي السلم، ولا لهاثها. بملاءة ســمراء ووجــه أبيض وعينين محدقتين. كأنما تنتظر منذ وقت بعيد. لملــم ذراعيــه المفرودتين تلقائيا، واعتدل خلف مكتبه، وتوارت مشاعر الخفة:

ــ أليس اليوم الإثنين؟

ــ قلت لعلك تكون موجودا.

تعاقبت علي المستشفى العام خمس إدارات مختلفة، توافد خلالهــا أطباء وتقاعد أطباء ونقل آخرون، وظلــت نوبتجياتــه ثابتــة أيــام الإثنين. فاستمرت عيادته من ثم ــ دون أن يقصد ــ كأيام أندراوز، مغلقة أيام الإثنين. لم يأت اليوم ليعمل، لكن الأمور بدت أنها تــسير علي غير ما يرغب. استندت علي البــاب، فبــدا الفــستان الجينــز والبلوزة البيضاء متسعين عليها، ونضحت من وجهها في آن ملامح الطفولة والنضج. لم تغادر وجهه النظرة المتسائلة:

ــ لكن اليوم هو الإثنين.

اختفت استدارة بطنها، فتلاشت ملامح الألم من وجهها، وحلــت محلها ملامح الطفولة المرتبكة مرة أخرى:

ــ خالتي نعمات قالت إنك هنا.

ــ وأين هي نعمات؟

أشارت إلي أسفل، فاندفع متشككا نحو الشرفة المغلقة منذ زمــن، أزاح الأتربة. يعرف أن نعمات لم تغــادر مكانهــا بجــوار ســور

المستشفي منذ زمن طويل. البندر كما هو، عمر أفندي، الكورنيش، شارع البحر، المسجد القديم، مجلس المدينة، مركز الإسعاف الرئيسي، محلات الكنافة والبقالة وقطع غيار البوتاجاز، عمر بن الخطاب، محالج العطار، والسيارات والحناطير.

وجدها. كانت تفصل بينها وبين أرجل المزدحمين والفضوليين من المارة بقطع من الطوب والحجارة، وكما اعتادت لأكثر من عشرين عاما، كانت تمارس حياتها الكاملة داخل هذه الحدود. تأكل وتنام وتستحم في العراء. لا تعنيها الدهشة في عيون الفضوليين، ولا إبلاغ إدارات المستشفي الجديدة لشرطة النجدة التي تأخذها فتغيب فترة داخل المصحة النفسية المقابلة ثم تعود فجأة إلي نفس المكان بيديها أكياس الحمص وقطع الحلوى البيضاء كالجبن كأنها لم تكن بمصحة نفسية، تستحدث أشياءها التي بعثرها العساكر، فتجمع في دأب قطع الشراميط وفرد الأحذية إلي الأطباق القديمة، وتشعل النار في أوراق وكراتين وأكياس بلاستيك دون أن تعني بأحد أو تكلم أحدا. صباح مختلف. نفس الجلسة المتقوقعة، ونفس الحدود الوهمية علي رصيف المستشفي الأميري، نقلتها نعمات إذن إلي هنا دون أن يأخذ باله.

أربكته الدموع التي ترقرقت في صمت، فخالجه شعور بالذنب وهو يغلق الشرفة، لأنه ارتاب في قولها دون مبرر. لم يميز إن كانت الدموع لتقلص البطن، أم لفتور استقباله لها. أصبح من غير الملائم ــ وهو يسعى نحو رحلة مبهمة ــ أن يتحمل هذا الوزر، فقرر أن يفحصها، ربما وجد الرأس موشكة علي الخروج، ولن يكون عليه حينئذ سوى أن يجذب المولود، ليحل الامتنان محل تلك الدموع، فتقول: مش عارفة كنت هاعمل إيه من غيرك؟ ويشعر

لحظتها بالأهمية الحقيقية لوجوده في هذه اللحظة بالـــذات، وربمـــا ظلت سعادته حتى يؤدى أشياء بسيطة بعد انتهـــاء الـــولادة: ربـــط السرة، تلبيس المولود، المساعدة في إنزالها عن ترابيزة الولادة إلـــي السرير، ومتابعته لعلامات الراحة تغمر الوجه بعد إجهاد الـــولادة، وطاعة الشعر المبلول بالعرق لتمشيط الأصابع التلقـــائي وانـــسداله للخلف.

تظل هذه الأشياء الصغيرة عالقة برأسه طويلا، أكثر من لحظات الولادة نفسها، إذ يغدو كل ما في الكون ــ في هذه اللحظات النـــادرة ــ طيعا وراضيا ورقيقا، وتطل تلقائيا أمارات التقدير مـــن العيـــون وتختلج في نبرات الكلام، وقد تمتد لسنوات دون أن تفتر كلما دخـــل البوابة وصعد هذا السلم إلي عيادته، إذ ترد نجاح بائعـــة الطعميـــة علي إيماءته بحماس، كأن ما فعله لها كان بالأمس، وهو ينزلها عن سرير الولادة، انقضت علي كفيه، وتهدج صـــوتها وهـــي تقبلهمـــا، وكلما حاول نزع كفيه، قالت بهوس وهي تبكي:

ــ لن يكفيني حتى لو بست رجلك.

لم تكن تتوقع أن تعيش لترى هيثم معلقا من ساقيه في الهـــواء، وقد صرخ صرخته الأولي وحبله السري مدلى بالجفت. كانت تعاني في حمله من تسمم بالغدة الدرقية وهبوط بالقلب وتـــورم بالـــساقين وكرشة النفس، حتى أنها حلّفت زوجها وعمرو علي المصحف فيما لو ماتت ألا يتعرضا له، لأنها تشعر منذ بداية هذا الحمـــل ــ الـــذي جاء متأخرا عن عمرو ثمانية عشر عاما ــ أنها ميتة بالفعل. كمـــن نجا بأعجوبة من حكم بالإعدام، كان يشعر بصدى هذه النجـــاة فـــي حماسها وهي ترد السلام عليه كلما دخل من بوابة أندراوز.

نزع قفاز الفحص ممتعضا وعاد إلي مكتبه حين وجد عنق الرحم مغلقا ورأس الجنين الآتى عالية. تبين أنها ما زالت في أولى مراحل الولادة. تيقن الآن أنها كانت دموع الخوف وفتور الاستقبال تلك التي في عينيها، فقد مسحتها واستراحت ملامحها تماما حتى قبل أن تسأله عن نتيجة الفحص، وبدت مثل طفل كف للتوِّ عن البكاء وسيقبل عما قليل علي النوم.

تنقبض أمعاؤه وتنتابه فجأة الرغبة في دخول الحمام، وترِد في خاطره كل الهواجس والاحتمالات، دون أن يلحظ أحد من الحضور قلقه، أو تغيب عن ملامحه الثقة التي يتحلى بها في مثل هذه المواقف، وسيكون من المتعذر أن يتبين أحد ــ من خلال ما يتفوه به من عبارات وسطية لا تحمل مدلولا محددا ــ أنه في هذه اللحظة يتغاضى عن نهلة وعزيزة وأم هاشم اللاتي حضرن أمامه، متكئات علي سرير الولادة، يخايلنه، ويتعبن أعصابه، يذكرنه بأسوأ المضاعفات التي تأتي من حيث لا يتوقع حتى في ولادة عادية جدا.

انقبضت أمعاؤه ولم يسترح حتى في الحمام. كبت هواجسه التي تجرفه بعيدا، نحو مراكز الشرطة غالبا، وتحقيقات النيابة ثم تلويث السمعة، كي لا تطفو علي سطحه الهادئ ووجهه المطمئن، متأهبا بذات السماحة والرحابة للإجابة عن أسئلة قلقة للحالة أو أحد مرافقيها:

ــ فاضل قد إيه؟

ــ ربنا يسهل.

وإن تكرر السؤال ملحا ومستوضحا:

ــ يعني فاضل كتير؟

يبتسم لعبثية أسئلتهم المتوالية، فلا يمكن لعاقـــل أن يــــرد عليهـــا سوي هذا الرد الغامض الواضح، إذ لا يمكنهم الاعتراض عليه:

ــ شوية.. ما تقلقوش.

آليات لغوية وحوارية استحدثها، ربما تقيه في مثل هذه المـــآزق من المشيب المبكر والشيخوخة، بعد أن جرب التحديد بدقة. نـــصف ساعة. ربع ساعة. تتنقل النظرات بين الساعات في الرسوغ ونقـــاط المحلول البطيئة، ثم ترتد إليه ــ قبلما يمر الوقت الذي حـــدده دون أن تلد ــ متسائلة ومتهمة ومتشككة، تزيد انفعاله وقلقه وتضيف إلي كاهله عبء تأخر الولادة. آليات لغوية استحدثها لمواجهـــة أســـئلة عبثية ومتكررة، فيما تظل أمعاؤه كما هي خلف هدوئـــه الظـــاهري متقلصة. هل كان لابد أن يمر وقت طويل كي يعتاد هـــذا الهـــدوء الظاهري، حتى أمام النار التي فاجأته من عيون البوتاجـــاز الـــذي صار كتلة من نار، فيتراجع قليلا للخلف دون أن يصرخ رغم لـــسع النار المفاجئ لوجهه ويديه، ويتوجه إلي الأنبوبة فيغلـــق محبـــسها بسرعة، هكذا دون أن تشعر الحالة الجالسة فـــي حجـــرة المكتـــب المقابلة، رغم أنه لم يكن قريبا من الموت مثلما كان وهو يعد الشاي في هذه اللحظة.

استحالت العيادة إلي زنزانة تضمهما، هو عند باب الحمام وهـــي جالسة هناك. صار مجرد وجودها في العيادة عبئا ثقيلا، يحول دون استجماعه لهذه الحالة الغامضة التـــي يحياهـــا، أو القـــبض علـــي ملامحها تحديدا. برفق كان يحاول إقناعها حتى لا تشعر أنه يـــدفعها إلي مغادرة العيادة:

ـــ تروحين الآن ثم تجيئين حين يزيد الطلق؟
ـــ أليس هذا طلقا؟
ـــ طلق.. لكن الوقت قد يطول.. ثم إنك جئت مبكرة.
ـــ مبكرة جدا؟؟
ـــ لا.. قليلا.
ـــ ألا يمكن أن يزيد الطلق وألد قبل ذلك؟
ـــ ممكن طبعا.
ـــ طيب.. هل أذهب؟

أراد أن يحاصرها فحاصرته. لو قال نعم سيعاوده الشعور بالذنب. فضل ألاَّ يرد. يختار المريض طبيبه، وليس العكس. سكت لأن المريض هو الفاعل دائما والطبيب هو الطرف السلبي. سكت لأنه لمح من استفساراتها أنها اختارته، ولن يكون بوسعه سوى أن يدعها تستريح في حجرة الولادة، ولا يلح عليها بالذهاب حتى ولو استحالت العيادة إلي زنزانة حقيقية. كان يريد أن تذهب وحدها كما جاءت وحدها، لكنها حاصرته، حتى أصبح الجواب بلا يساوي الجواب بنعم.

استحالت العيادة إلي زنزانة حقيقية، واعتملت في نفسه هواجس أخري يعرفها حول ما قد يواجهه من طوارئ وكيف يتعامل معها. كي يبعدها بسط الأمر لنفسه، فالمكان ليس في النهاية أكثر من غرفة ولادة، يتوافر بها المعتاد من آلات وأدوية ضرورية، ولا ينبغي أن تنتابه هذه الهواجس مع دخول كل حالة لعيادته، لمجرد أن إحداهن قد تشذ عن القاعدة فتتطلب حاجات معينة، أو تسلك في ولادتها سلوكا غير متوقع. وكما قد يحتاج أثناء ولادة طبيعية وبشكل مباغت لشيء نادر جدا، لا يسعفه الوقت حتى لمجرد تذكره

أو كتابته، ولا من أين يمكن الإتيان به، يمكن ألاَّ يحتاج لهذا الشيء النادر لسنوات فيما لو وفره، وربما طوال عمــره المهنــي. تبقــى العوامل الأخرى كانقطاع الكهرباء، أو تعطــل جهــاز الــشفط، أو انقطاع حرارة التليفون وقتما يطلب طبيب التخدير، والمطر المفاجئ حين يعوق نقل الحالة فيما لو حدثت مضاعفات شديدة، ومــداخلات ومقاطعات رواد العيادة الآخرين وهي ــ علي ندرتها ــ يمكن تقبلها كمعوقات خارجية. أما توقيت الولادات، وخوفــه مــن مــضاعفات الفجر، حين يقرر الانتقال للمستشفي، لنوم كاتب الاستقبال وعامــل المصعد وممرضات العمليات والأطباء النوبتجيين، وبنك الدم، فقــد اعتاد علي ألاَّ يزول قلقه إلا بعد أن تلد الحالة، وتخرج علي قدميها. وقد جلس لذلك خلف مكتبه، وأراح رأسه للخلف وفرد ذراعيه علي امتدادهما، وقرر نهائيا الشروع في مهمته.

ــ .. .. ..؟

ـ أروي علي محمود.

ــ من أين يا أروي؟

طار النوم من عيون الطفلة التي كانت ستخلد إليه عمــا قليــل، وابتسمت فبانت غمازتا وجهها لأول مرة:

ــ ألا يبدو من ملامحي؟

ثمة عذوبة وصفاء، وملامح بريئة تبعث على الارتياح جعلتهــا تبدو كأميرة خرجت توا من الحواديت، فاختلطت الأمور عليه لأول مرة، وبدا أنه ليس في حالة تسمح بالتخمين الصحيح:

ــ لست غريبة عموما..

أومأت متوسلة أن يكمل، لكنه قال:

ــ عاشت الأسامي يا أروي.

لم تعد تحبها، هذه العبارة التي يبتر بعدها الحديث رغم ما كـــان يعد به. تميمة للخلود في ظاهرها، وتكريس للغياب والنـــسيان فـــي الباطن. تسمعها فتنحدر وحدها الدموع بـــلا صـــوت، وتعلـــم أنهـــا سترتطم بعدها بجدار مصمت.

في الشارع التجاري، يتحول شراؤها لأي شيء إلي صـــداقة. لا تشتري إلا من عجوز، مقيم غير عابر. تتمادى فـــلا تقـــدم نفـــسها. تنتظر تخمينه التلقائي. أنا شفتك قبل كده. يهيأ لي أننـــي أعرفـــك. تومئ مشجعة ومبتسمة. اللهم صلِ علي سيدنا محمد. لكن أين؟ مـــن عائلة فلان؟ يا ربي! لا.. إنها عائلة علان في بلد كذا. تسجل فـــي ذهنها أسماء عائلات وأسماء بلاد. تتقصى بطرقها الخاصة والبدائية والدءوبة، لكنها ترتطم بجدار مصمت. ينهكها البحث، لكنها لا تكف حتى تعيد المدينة الواسعة إلي سيرتها الأولي. مجرد قرية صـــغيرة وضيقة بشكل يتمكن معه أي بائع عجوز أن يتذكر عائلاتها كاملـــة، وقتما كان هذا الشارع التجاري مجرد سويقة تربط داير الناحية من النيل بشريط القطار، حتى قبل أن يتحول في بداية القرن إلي شارع مختص بالأقمشة والأحذية والخردوات والأدوات المنزلية، وتتـــزاح سويقة الطيور واللحوم والخضار إلي شارع جانبي يتفرع منه، ثـــم يلتقي به مرة أخري عند مثلث الصاغة والمنجدين وتجـــار القطـــن. تراها أروى كقرية متعبة، تريح رأسها من الجنوب علـــي الريـــاح التوفيقي بكوبريين متلاصقين أحدهما للمشاة والآخر للقطار، مـــات عليه علي محمود. يمر فرع دمياط بجانبها الأيسر، ومـــن جانبهـــا الأيمن تمتد الحقول خلف السجن العمـــومي ومحـــالج بنـــك مـــصر ومعاصر الزيوت والصابون ومبخرة البرتقال. ثم ينثنـــي جـــسدها المتعب جهة الغرب ممددا ســـاقيه ــ كـــي لا يـــسقط ــ كجـــسرين

متباعدين علي النيل، أيمنهما للسيارات والأيسر للقطار الفرنساوي، ذلك الذي يشق الجسد المتعب طوليا في دقيقة وعشرين ثانية، ولا يتوقف بها حتى بعد أن التحمت بها المنشية وعزبة القرود ومنشأة عزيز وبدوي وأتريب وكفر السرايا، وصارت مركزا لاثنين وأربعين قرية حولها، ثم عاصمة لمحافظة فيما بعد.

لم يكن في وضع يسمح بالتخمين، لكنه كاد يجزم أنه رآها من قبل، هذا الوجه تحديدا. ونازك التي تدخل في الموضوع بشكل آلي، ولا يهمها سوى الاسم واستلام ثمن الكشف، كان بإمكانها لو كانت موجودة أن تزيل له هذا الغموض واللبس. لم يكن في حالة تسمح بالتخمين، لأنه في اليوم الثالث فقط، عندما همَّ بإغلاق حقيبته، ارتاب في أنه يفحص نفس المريض. لم تكن به أي علامات مرضية تذكر. أحس قبل أن ينطق التشخيص بأن الكلام الذي سيخرج من فمه سبق أن قاله مرتين. تردد لحظة وحدق في وجوه المحيطين. لم يجد أثرا لأحد رآه من قبل، فقال إن مريضهم سليم وأكمل إغلاق حقيبته وخرج.

في اليوم الرابع، بعد مسيرة نصف ساعة، تأكد الشك. قال المريض: سأموت، فقال إنه سليم وخرج متأففا. علي طريق النهر سأله مرافقه عن حقيقة مرضه، فهز رأسه وقال: لا شيء. تمتم مرافقه: لكنه سيموت! كرر قوله مرة أخرى: لا شيء به. أشار مرافقه إلي حقل في الساحل زرع بالمكرونة وقال وهو يمصمص شفتيه:

ــ هذا حقله!

فقال لمرافقه: ما اسمك؟

ــ خدامك إمام الفنجري.

ـ يا عم إمام لا تستدعوني مرة أخرى.

في اليوم الخامس، طلبه صبي خجول للكشف علي مريض، فقال أول ما سأل: أين؟ قال الصبي: علي بعد دقيقتين من هنا. فنزل معه من شوارع ضيقة إلي حارات صغيرة يخيل إليه أنها مسدودة، لكنه ما إن يقترب خلف الصبي الذي يجتاز الباب الأخير في الحارة، يجد نفسه في حارة أخرى. كان يلقي السلام علي الجالسين علي الأبواب والمستريحين علي الأعتاب والذين يأكلون، فيما بدا أن مرورهما هكذا لم يكن غريبا، فقد كان الجالسون يردون السلام والمضطجعون يعتدلون. وكأنهم يعرفون المهمة التي سيذهب إليها، وكانوا يرددون كثيرا: ألف سلامة. ربنا يشفي كل مريض. بعد دقيقتين تماما من العيادة، وجد نفسه أمام نفس المريض. تلفت من حوله ليرى إن كان ثمة بيت بخمسة مداخل مختلفة، فلم ير من بين الواقفين حوله أثرا لمن استدعوه في المرات السابقة. وحده كان الصبي الذي يرفع الغطاء عن المريض ويتنقل ببصره بين حقيبته ووجه المريض، ويوشك علي البكاء منتظرا التشخيص. لم يكد يؤكد بنفس الملل وهو يغلق حقيبته أنه سليم، حتى شهق المريض شهقة أخيرة تزامنت تماما مع إمساك الصبي لحلق الثوب وشقه بصرخة طويلة وملتاعة. لم يحرجه ذلك الحدس الكامن بالخطر في الصرخة، أو موت المريض غير المتوقع، بقدر ما أحرجه اكتشافه من الثوب المشقوق والنهدين الصغيرين أن الذي استدعاه صبية لا صبي. خرج محرجا، يكمل غلق حقيبته في الشارع، لا يستطيع التحديق في عيون المضطجعين والجالسين علي الأبواب ينظرون إليه بتسليم، كأنهم كانوا يعرفون. انتبه إلي كومة من نوى البلح تنطلق من داخل بيت،

تفاداها بالكاد لكنه سمع صوتا يقول: ألم أقل إنـــه ســيموت؟ التفــت فالتقت عيناه بإمام الفنجري متكئا داخل عتبة بابه وبيده طبق فارغ.

لا يدري حتى هذه اللحظة إن كان قد كشف بالفعل علـــي رجــل بهذا الشكل، في دار بخمسة مداخل تؤدي إليها خمسة طرق مختلفة، أم أن الأمر مجرد حلم أو حكاية من حكايات أندراوز. ربمـــا نـــسي الموضوع تماما، لكنه لم ينس ذلك الإحساس بالحرج وهو عائد إلـــي العيادة، ولا مشهد الصبية الملتاعة وهي تشق الثوب، والتي يوشـــك أن يجزم أن ملامحها تنطبق علي الجالسة أمامه كطفل طـــار النـــوم عن عينيه:

ـــ هل جئت هذه العيادة من قبل؟

هزت رأسها.

كانت أروى تشعر منذ اتكأت بيديها علي إطار البـــاب قبـــل أن تدخل، كأنها جاءت هنا، وأن الحجرة التي في مواجهة الصالة وفـــي مواجهة الداخل من الباب هي حجرة الكشف، ولابد أن يكـــون هنـــا باب يفصل غرفة الولادة عنها، وتلك الغرفة لابد أنها تطـــل علـــي خلاء جانبي بشباك فقط، غير بابها الذي من الصالة، ولغرفة المكتب شرفة تطل علي عمر أفندي والبندر والشارع، وهذا المنور الكبيـــر الذي تفتح عليه الصالة بشباك زجاجي خشب فقط تطل عليه حجـــرة المطبخ والحمام. كأنها دخلت هنا من قبل، فلماذا يقول لهـــا عاشـــت الأسامي وينقطع الحديث هكذا؟ وهل كان بوسع أندراوز أن يجيبهـــا عن شيء مما يدور في رأسها لو سألته قبل ثلاثة وعشرين عامـــا، حيث كان الأمل يراودها في كل عجوز تقابله وكل شيء تبتاعـــه أن تصل إلي شيء، وهل تراها تجد الدفاتر القديمة والمسجل فيها أسماء المرضي لخمسين عاما مضت وتبحث فيها عن شيء. أو لـــم يـــتح

لطبيب عجوز وأريب مثل أندراوز أن يعرف جيدا عـائلات هـذه المدينة الصغيرة التي عمل بها خمسين عاما متواصلة، مسافرا إليهـا بشكل يومي عدا الاثنين من القاهرة ونازلا من القطار في موعـده، حيث ينتظره حنطور حسين الدولة ومن بعده ولده عبد الوهاب ثـم أخيرا حفيده حسين عبد الوهاب حسين الدولة ليوصله إلي العيـادة، فيعرف كل أهل المدينة النحيفة والقرى المجاورة بوصول أنـدراوز الذي لا يكف عن التساؤل كلما أطل من نافذة قطار شبه خال يـصل المحطة في العاشرة وعشر دقائق يوميا: كيف يتواصل أهل كل هذه القرى المتناثرة بلا منطق وسط هذه الغيطان الفسيحة ككتل صـغيرة من دور طينية لا تكاد تبين من بين الأشجار لولا مآذنها المتواضعة، بلا طرق تربطها سوي مدقات ملتوية كثعابين تقترب وتبتعـد بـلا منطق أيضا وإن كانت تلتقي في نهاياتها لابد بطريق عمومي مترب يحاذي الطريق الزراعي السريع وشريط القطار حتى المدينة حيـث عيادته، حتى صار بإمكانه أن يرد كل مريض يكشف عنـده إلـي أصله حيث يتذكر كل العواجيز الذين عولجوا عنده، ويمكنه حينئـذ أن يحكي للتسرية عن المريض مئات الحكايات عن أناس من عائلته يقطنون قريته، ولا يعدم غالبا أن يجد ما يربط بـين مرضـاه مـن اثنتين وأربعين قرية حين تتشابه الأسماء والألقاب.

لخمسين عاما سيقف القطار شبه الخالي لمدة دقيقة واحـدة كـي يتمكن أندراوز من النزول في المحطة. وسيقف القطار فـي اليـوم التالي ولا ينزل أندراوز، وسينزله في نفس الموعـد مـن الـسيارة السوداء أقاربه ــ كما أوصي ــ في مقبرة تتسع لفرد واحـد بهـذه المدينة. مقبرة تطل بفوهة وصليب من ناحية علي مقـابر الأقبـاط ومن الأخرى علي مدافن المسلمين، ليشارك في وداعه أولئك الـذين

كان يصدر تعليماته المشددة لموظفي وحدة الملاريا والأوبئة بمعاطفهم البيضاء بمعاملتهم برفق وإنسانية، وأن يحددوا بدقة أماكن الرش علي الرأس من الخلف وفي ياقات الجلاليب، غير أنهم كانوا يوجهون البدارات إلي وجوههم كأنهم يطلقون عليهم النار ويديرون أوجههم للخلف حتى لا ترتد إليهم رائحة مركبات الفوسفور العضوية أو الملاثيون، وكان أندراوز يصرخ ـ أيام كان طبيب المركز ـ بأنهم آدميون، وعلي ممرضيه أن يوجهوا بحرص بخاخات البودرة نحو أقفيتهم فقط بالقدر الذي يكفي لقتل الحشرات والقمل والجرب المعدي، غير أن ممرضي الملاريا كانوا يرشونها كيفما اتفق بهذه الطريقة العدائية والمتعالية فيبدو أهل المدينة والريفيون البؤساء مغبرين كأنهم خارجون من طاحونة، فيما يفزع الأطفال الصغار وعيال المدارس، أو يسقطون من الإعياء إثر زيادة الجرعة أو دخولها للجسم من فتحات أخري.

الذين يلبسون الآن هدوما نظيفة وشعورهم مسرحة، هم الذين تكاتفوا قبل ثلاثة وعشرين عاما ليدفنوه بأنفسهم، وجلسوا خلف مقبرته من جهة مقابر المسلمين ليقرأوا القرآن، وتطوعوا فيما بعد بوضع لافتة من رخام وكتبوا عليها: قبر المرحوم أندراوز الحكيم قدس الله روحه، وتطوع آخرون بزراعة شجرة بنسيانا أمام المقبرة تظللها وما حولها الآن كخيمة، وهم أنفسهم الذين اختزلوا مدافن الأقباط كلها فيما بعد إلي ترب أندراوز كلما مروا بها أو جاءت سيرته عرضا ويضيفون: الله يقدس روحه.

تنهدت أروي التي كانت تشعر أنها من هنا يمكن أن تعثر علي بداية الخيط، رغم أنها لم تكن تبلغ من العمر آنذاك سوى سنوات قليلة، فدفاتر أندراوز أقدم بعشرات السنين من المستشفي الأميري،

والطبيب الذي في عيادة أندراوز لابد أنه يمتلك بعضا من صفاته وعاداته. هكذا كانت تعتقد. لكنه قال: عاشت الأسامي، فودت لو تصرخ بأنها كانت هنا من قبل.

ــ هل أنت خائفة؟

ــ ....

ــ زوجة من يا أروي؟

ــ راشد عبد المجيد.

لم تهتز ملامحه. تأكدت أنه لا يعرفه أيضا. لو كان أندراوز موجودا لخبط المكتب بيده وصرخ: آه راشد! الولد الصغير الذي ظل يمسك ذيل جلباب أبيه عبد المجيد أينما يذهب، وكان عبد المجيد يحبه ولا ينقصه سوى أن يطلع له البز ويرضعه. متى كبر هذا الولد ومتى تزوج؟ والله عجزت وراحت عليك يا أندراوز! راشد الذي طلب لحمة مرة فلف عبد المجيد المدينة كلها ولم يجد، ولما وجده يبكى لم يتحمل، فذهب إلي أندراوز ورأسه وألف سيف أن يقطع قطعة من كتفه للولد الذي يبكي ولا يوجد بهذه المدينة الفقر جزار واحد عنده لحمة. تعلل أندراوز بأنه لا يوجد لديه بنج فقال : لا يهم .. سأتحمل! راشد هو الذي طلعت به من الدنيا يا حكيم باشا وأمه ميتة وأنت تعرف. ولم يخرج عبد المجيد إلا بعد أن أعطاه أندراوز حقنة البنج وطلب حسين الدولة بالحنطور ليذهب بهذا المجنون إلي داره.

هو بعينه راشد الذي لم ينه دراسة العلوم السياسية، تلك التي صمم من أجلها أن يترك الآداب والتجارة والتربية. حسن مجموعه في الثانوية العامة لثلاث سنوات متتالية، حتى صار تصميمه مثار إعجاب الكثيرين، لولا أنه صمم على ألا يستكمل العلوم السياسية

أيضا. فتحول إعجابهم إلي ريبة، واسترجعوا فقط إصرار أبيه عبد المجيد كل عام علي استنبات المكرونة في حقله. هو بعينه راشد الذي كان يعرف نقطة ضعفها. أنت حساسة أزيد من اللازم. اذكري لي أحدا مات لأنه لم يعرف نسبه. هل سأل أحد: ابن من كان الشاطر حسن، أو ابنة من كانت ست الحسن؟ نقطة ضعفك أنك تشعرين دائما بأن خلفك تاريخ طويل وحقيقي لكنه مفقود.

ـ عاشت الأسامي يا أروي!

لو كان أندراوز موجودا لما نسي شيئا.

كمن يطارد أيائل شاردة، كانت عيونه زائغة. تراوغه روائح قديمة، غامضة ومتداخلة، وتشتته ألوان مترامية، تتعانق وتسيل، وتتلاشى نقرات دف بعيد، وترانيم كأنها تسابيح. انتبه إلي صدرها وأشار:

ـ أكان هنا عقد؟

ـ يااه .. وانفرط منذ زمن!

اختلطت الأمور أكثر، واقترب صوت الدرويش المداح كأنه عاد كما كان لحظة صعوده السلم، وبدا طويلا في جلبابه الأزرق، وتذكر أنه كان متزنا رغم سرعة الكارو وانعطاف الحصان المفاجئ من شارع الكورنيش إلي شارع المديرية، وبدا كأنه يغني لنفسه وتأكد تماما أنه لم يكن ينظر باتجاه أحد، وانه ظل كعادته يمرق كالسهم من جنوب المدينة حيث كوبري الرياح التوفيقي وشارع الجيش ثم النفق ثم شارع سعد زغلول إلي شمالها حيث الكوبري علي النيل، دون أن يعرف علي مدي عشرين سنة أين يذهب ومتى يعود. صار صوت الدرويش قريبا لولا أنه يعرف أنه يمرق كالسهم ولا يعود

في نفس اليوم. خمن! يا للصعوبة، كأن عليه أن يفصل إبـــرة عـــن كومة قش.

جذب راحتها. كشف ذراعها كي يقيس الضغط. خمـــن! عـــادت أنوار تتلألأ، وبدت الذراع الصغيرة شاهقة البياض، كأنها تـــضيء. أكمل الكشف، هذا الصدر النافر بحلمتيه البنيتين، وهذه الرقبة، بـــالغ في الصعود بالفستان الجينز لأعلي، هذا الصدر كأن شـــيئا ينقـــصه، قال مؤكدا:

ـــ عقد من لؤلؤ؟

مندهشة أومأت برأسها مرة أخرى، فارتعد بدنه. تداخلت المشاهد كأثواب من أقمشة ملونة مفرودة ومعقودة ببعضها كأمعـــاء أرنـــب. لجأ إلي تاريخها المرضي. استعان بأسئلة ظاهرها تـــسجيل بيانـــات الحالة، وباطنها هدف في رأسه. الاسم والسن والعنـــوان، العـــادات الخاصة، تاريخ آخر دورة، مرات الولادة والإجهـــاض الـــسابقة إن وجد، نوعها، تاريخ الزواج، تاريخ مرضي سابق، عائلي، مرضي، جراحي. تقرير طبي مفصل. بدربة كان يمط فيما يرغبه، ويختصر فيما لا يهمه. لكنه لم يرو ظمأه، أو حتى يوصله لخيط قوي يجـــذب ذاكرته بعنف. أغلق جهاز الضغط متحيرا:

ـــ ألم نلتق من قبل؟

ـــ التقينا.

حين أيقظه أبوه لينتقل من مكانه إلي مكان نومه المعتاد، لم يكـــن يبتسم له، إنما كان يبتسم في معطفه الأبيض للمرضى فـــي عيـــادة أندراوز. كان يفحصهم بسماعة في أذنه، وكانوا كثيرين، إلا أنهـــم كانوا يميلون أولا على نعمات الملط، يسألونها عن أندراوز، قبل أن يمثلوا مترددين بين يدي طفل صغير ذي معطف أبـــيض. ومـــا إن

ينتهي من فحصهم حتى تتراقص أجسادهم من الفرح ويلوحون له بأيـــديهم التي كانت معتلة في الهواء، فيبتسم لهم.

دفعه أبوه في كتفه متهكما: تحلم وما زلنا في أول الليـــل؟ فـــي اليـــوم التالي مرضت أمه وذهب بها إلي أندراوز فلم يجده. وحين عاد من جنازة أندراوز، ربت كتفه، وقال لزوجته إن ولدها غريب، تجيئه الأحـــلام فـــي الهزيع الأول من الليل، تنفصل روحه عن جسده النائم. كان يـــضع أذنـــه علي صدره متسمعا دقات قلبه وحركة تنفسه، فلا يظفر بـــشيء. تنفـــصل روحه تماما. تسبح في الفضاء. تلتقي أثناء سباحتها مـــع أرواح لآخـــرين موتي وأحياء. تسيح وتلف وحين تعود إلي جسده الراقـــد كميـــت، تعـــود بانطباعات غريبة، غير مرتبة حين يرويها وغير مفهومة غالبا، ولا يبقـــى منها سوى إشارات يشعر بها أبوه، فحظر لذلك أن يوقظه أحد بعنـــف، أو فجأة أثناء الحلم حتى لا تضل الروح أثناء عودتها، وتولى إيقاظه بهـــدوء وعلي مراحل، وكان أكثر ما يخشاه أن يموت نتيجة استيقاظ مفاجئ أثنـــاء الحلم، علي النقيض منه هو الذي ينام علي وضوء فتأتيه شخصيات الحلـــم بهيئة ملائكة أو أشباح تدخل من ثقب الباب وتقف علي حافة السرير حتى تسلمه الرسالة، ثم تعود ببساطة من نفس الثقب، ليصحو متذكرا الرســـالة كلها بالتفصيل.

كحلم في الهزيع الأول من الليل، لم يصل إلي تحديد فعلي أين رآهـــا. حتى حكاية المريض والبيت ذي المداخل الخمسة غير متأكد منها تمامـــا، فقد خبر المدينة كلها، ودقق في شوارعها وحواريها لكنه لم يعثـــر علـــي بيت مشابه. كأنه كان منوما أو لعله كان يحلم. لم يمده التاريخ المرضـــي بشيء، ولم يشغله في الفحص سوى رقبتها التي خلت من العقد. اعتقد أنه رأى هذه الملامح، بيد أنه لم يجرؤ على مفاتحتها في أشياء غير متأكد

الوقت ما بين الغداء والعشاء، لا يزيد. دخلت عليهم فجأة وصرخت كأنها لم تأكل منذ سنة: أريد أن أتعشي! وكانوا بالنسبة لها كمن انتهوا لتوهم من العشاء بدونها، غير أنهم صرخوا وفزعوا، ثم ضحكوا وأخذوها بالأحضان، وقال لهم عليٌّ الدين ــ الذي رأتهم يسمونه علي محمود ــ أنه وجدها في نفس المكان الذي غابت فيه. غابت كأن الأرض انشقت وبلعتها وظهرت في ذات المكان الذي صار مشتلا لأشجار الزينة بعد أن انحسرت عنه المياه، بذات الفستان، وذات تسريحة الشعر، وذات الحذاء. كعملة فقدت، تم البحث عنها بدقة دون جدوى، وبعد فترة طويلة ظهرت في نفس المكان. كان سؤالهم قد توحد: أين كنت؟ فقالت ببراءة:

ــ كنت ألعب.

ردوا في صوت واحد وعيونهم مفتوحة:

ــ سنتين؟!

كان الماء يفيض من فرع دمياط، فيغرق المسافة من عزبة الزراعة حتى كفر السرايا. يجرف في وجهه الموز والقصب الأحمر والذرة، فلا تصمد طويلا حجارة الدبش التي يضعها الأهالي وعمال الطرق في صده. يخرج القريبون من الشاطئ من دورهم علي ألواح من خشب حين يدفع الماء المحمل بالطمي أبوابهم كأنه طوفان. هل كان يعلم أنه الفيضان الأخير، فقرر أن ينتقم ويغرق كل شيء؟ صرخ علي محمود علي ابنته أروي، ذات الصرخة التي صرخها بعد عامين بين أشجار المشتل حين فاجأته ذات مساء في نفس المكان. تخلف عن الطوفان الأخير طمي وغرين أحمر ناعم، وانحسر الماء عن مساحات واسعة من طرح النهر المحمل بالطمي الأحمر، وفي ذات المكان زرع علي محمود مشتلا لأشجار الفواكه

والزينة، وأقيمت البيوت مرة أخري بالحجر دون خوف هذه المـرة، وأطلت الشرفات العالية عليه دون رعب، واستبدلت الشوارع بالحارات، فسميت حارة الدهشان بشارع الدهشان .

صارت تعصر ذهنها لترد علي أسئلتهم، مجهدة ذهنها لتكتشف فترة ما، محددة لا تعرف طولها، بدأت بلعبها مع أطفال هنا، وانتهت بظهورها في نفس المكان، ثم طلبها للعشاء.

فترة مفقودة من ذهنها تماما. كلما حاولت استعادتها، تعود الذاكرة منسابة وحيوية ومتدفقة، لكنها عند الحافة البارزة، تتعثر وتعبر الهوة السحيقة تماما كصفحة تتعذر قراءتها، لتلتحم خلف حافة أخرى بارزة بطلبها المفاجئ للعشاء. كان عليٌّ الدين منذ أن انغلقت خلفهما بوابة القصر يطوقها بذراعيه علي الحصان البني ذي القوائم البيضاء، ونقطة سوداء بين عينيه، يهبط بها هذه الدرجات الحجرية المنحدرة، يزغزغها فتضحك، يراوغها كطيف وسط مروج خضراء كعادته. يتخفى خلف نخيل كبير ثم يبرز من حيث لا تتوقع، فتصرخ وهي تضحك وسط بنات وصبيان يمرحون بثياب مبهجة وملونة، ثم انتهي الاحتفال فجأة، قبل أن ينتهي اللعب. أظلمت الدنيا قبل أن تجده خلف جذوع النخيل، وبين الأعشاب والأحراش. شعرت أنها جوعانة وبردانة وخائفة، فنادت بين الأشجار المعتمة بلوعة:

ــ علي الدين..أين أنت يا علي الدين؟

كأن الأرض انشقت ولفظتها بين الأشجار، فاحتضنها وهو يصرخ بفرح:

ــ أين كنت يا أروى؟

وكان كلما ينزلها من حضنه يهمس في أذنها: ما حكاية علي الدين هذه يا أروى؟ ومن شرودها لم تكن ترد ولم تشأ أن تسأله عن

حكاية علي محمود هذه. كان لكل شـــيء طعـــم مـــدهش: العـــشاء، والبشر، والشوارع الضيقة الملتويـــة كمتاهـــة بإضـــاءاتها الخافتـــة المنبعثة من كوات صغيرة بالحوائط. كانت تتلفت كتائهـــة للأكـــواخ الطينية، تقترب منها بلهفة وشوق لترى الأحـــصنة، فيخـــرج منهـــا آدميون، يفتحون أفواههم في دهشة، ثـــم يبتـــسمون ويريـــدون أن يحتضنوها فتشلها المفاجأة وتتشبث فزعة بعلـــي محمـــود. توقفـــت أخيرا وقالت: كفى.. أريد أن أرجع. نظر إليها مندهشا: إلـــي أيـــن؟ فهزت رأسها:

ــ إلي القصر.

قال إنها لم تكد ترجع إلي أبيها وأهلها ومـــدينتها، فـــأين تريـــد الذهاب؟ بكت ولم تكف حتى أسلم نفسه لها، تسير أمامه فيتبعهـــا، لا تقودها عبر غرب المدينة أو جنوبها الغربي سوي روائح غامـــضة وصور بعيدة لأرض غير سهلة، تصعد بها لأعلي. منجذبـــة بهـــذا الانحدار إلي أعلي، كانت تثق أنها ستجد ما تبغي هناك، في منتهـــى المرتفع. لم تكن تسلك طرقا بقدر ما كانت تخوض وسط زراعـــات ومدقات صغيرة منحنية وملتوية، تتجاوز أكواخا ودورا وقري. تغفو وتفيق، ترقد وتنهض، يروح ظلام ويجيء صباح، ولا تحصل مـــن متاهتها الكبيرة إلا علي سؤاله المندهش واليائس: ماذا تريدين؟ وعم تبحثين؟ تظل كخرساء حائرة، تتوق إلي مكان مثبت جيدا بذاكرتها، رائحته في أنفها، تراه، لكنها لا تستطيع نقله إليه، فتنفجر في بكـــاء أخرس وعنيف.

نصحه خالها بعدم فتح الموضوع أمام أي مخلوق، ونفض إمـــام الفنجري يديه ــ معلنا عجزه ــ وقال إن الزمن وحده كفيل بعـــلاج الأمر، وما عليه سوى أن ينتبه إليها ويتتبعها لأنها عرضة للاختفاء

مرة أخرى، وحذره من عرضها علي الأطباء خصوصا أنــدراوز.
وطلب محمد البيه مرة أخرى خصلة من شعرها واسم الأم الحقيقي، وعاد ليؤكد أن كل ما فعله سليم، بيد أنه لا يستبعد احتمال أن تكــون البنت قد استبدلت عن طريق الخطأ بأخرى، تشاركها الاســم واســم الأم، إلا أنها ابنة ملك قديم، ومن ثَمَّ لن يكون الحل سوى بالانتظار.

كان شرودها المصحوب بالذهول والحدة والعصبية هــو الــسمة الغالبة، مع ذلك كان علي محمود على استعداد لأن يتبعها إلي مــا لا نهاية، كأنه الوحيد الذي يشعر بما تعانيه وتبحث عنه، لكنه لا يملك حيال ما تطلبه سوى أن يتبعها متسائلا في صبر:

ـــ ألا يكفي هذا البحث يا أروي؟

لا ترد. يعاملها برقة كأنها مريضة حين تــسأله عــن الأشــجار الغريبة في المشتل فيرد باستغراب:

ـــ إنه التوت يا حبيبتي؟

تقول إن التوت الذي تقصده ليس ذلك، فيقول: ربمــا تقــصدين التوت الرومي.. الأفرنجي. لا نعرفه، والتوت المتوافر هنا، الأبيض والأسود وخد الجميل، فتقول: لا. حتى الأشجار التي تعرفها، تتوتر حين تسأله فيرد وهو يشير بإصبعه في الهواء بالترتيــب: كــافور، جازورين، عبل، صفصاف، نخيل وزنزلخت، فتقول بعنــاد: لــيس هكذا، له اسم آخر، لا تذكره ثم تــسير علــي الطريــق الــساحلي الموازي للنهر، تسأله عن مساحات الموز الهائلة، فيقول إنها جزيرة في النهر ملك لأولاد فهمي باشا، وهي مزروعة بالموز منذ كان هو نفسه صغيرا لا يعرف الموز، ولا توجد هناك قصور يا أروي، فقط سرايا كبيرة، وسط مائتي فدان من الموز، رآها مرة واحــدة حــين كان طفلا، وكان فهمي باشا أول من زرع الموز في جزيرته، ولــم

يكن هو أو أترابه في هذا الجانب من النهر يعرفون بعـــد مـــا هـــو الموز وما هو طعمه، حتى عبروا النهر وتسللوا إلي الجزيرة عوما، وبعد إرهاق قطعوا أوراق الموز الكثيفة وأخـــذوها إلـــي الـــشاطئ وجلسوا يمضغون الورق متحملين طعمه المقزز حتى تقيـــأوا علـــى الشاطئ ما أكلوه، وظلوا من هذا الجانب يشتمون فهمي باشا الجالس بعيدا بلا شك في كرسيه أمام السرايا وهو يعلم أنه يزرع مـــوزا لا طعم له.

تواصل السير كأنها مغيبة، حتى طحلة وكفـــر طحلـــة وســـاحل دجوى، بين أشجار المشمش والبرتقال والمانجو. تحتار حين تـــدمع عيناه، إذ تكون حدودها حين تتلألأ في عينيه، فتعرف أنه ليس لديه بعد ذلك شيء، وأنه تعب. تتظاهر بالصمت. استفحل الأمر فقرر أن يذهب بها لأندراوز، لكن القطار القادم من القـــاهرة باغتـــه علـــي كوبري الرياح. نفس القطار الذي خلا لأول يـــوم مـــن أنـــدراوز، فتركها فجأة؛ وهي في الخامسة دون أن يترك لـــذاكرتها الـــصغيرة بعض ملامحه، أو بيتا يتردد في جنباته اسمه، فتنساب من عينيهـــا الدموع الحارة كلما مرت بكوبري القطارات علي الرياح التـــوفيقي حيث كان يعبر حاملا بين ذراعيه المفرودتين كومـــة مـــن أشـــجار الياسمين وشتلات السرو والمشمش، ليبيعها في أول طريق العمـــار وبلتان حين فاجأه القطار.

مرتان يجيئه في نفس الليلة ولا يكلمه. مرتان يسلمه ورقا أبيض ملفوفا كبكرة من حرير. ومرتان يستيقظ ولا يجد شيئا. في الثالثـــة قال له: "لا ترحل من كون إلي كون، فتكون كحمار الرحى، يـــسير

والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه، ولكن ارحل من الأكوان إلي المكوِّن"*. أذن الفجر، فنهض. قرر أن يزوره قبل الامتحان. رأي أن يأخذ بيرقا أبيض، يضعه علي مقبرته في المرج، وقبل أن يصل كانت دموعه تنهمر علي انتقاله وانقطاع الخيوط القديمة نهائيا بهذا الشكل السريع ولم تكد تبدأ. أذهلته ــ حين جفف دموعه ــ الراية البيضاء المرفوعة علي المقبرة، في ذات المكان الذي فكر أن يضع فيه بيرقه.

كحلم في الهزيع الأول من الليل، ذهل حين رآه بنفس الجلباب الذي تركه به أول أمس، ونفس صمته المتأمل. انتفض من خلف مكتبه ليرمي بنفسه في حضنه. قرر ألاَّ يتركه من بين ذراعيه.

ــ كيف جئت؟!

كنت عابرا من هنا وأردت الاطمئنان عليك.

ــ أوحشتني والله العظيم.

كان يعي وهو يخاطبه أنه انتقل أول أمس، وانه لم يدفن هنا، فقد تأخر أعمامه في الوصول إلي المكان، وإنقاذا للموقف دفنه أقارب زوجته في المرج.

كحلم في الهزيع الأول من الليل، عاتبه لأنه لم يجيء، وعرَّفه أن مقبرته هنا ظلت مفتوحة بانتظاره حتى منتصف الليل. بعد ذلك أغلقها جمعة أبو الجود. ابتسم:

ــ أنسيت أن طاقية واحدة لا تسع رأسين؟

ــ حتى بعد الموت؟

أومأ برأسه، ثم دمعت عيناه.

كأنه حلم. دفع إليه بكوب الشاي. فرد كفيه معتذرا ومستغربا كأنه يلومه.

ـ هيه.. ما أحوالك؟

ـ الحمد لله.

ـ أعندك ورق هنا؟

فأومأ برأسه فرحا.

نهض لإحضار الورق، ولم يكن يدرك إن كانت الترانيم الخافتة والغامضة التي تتناهى إلي رأسه للدرويش المداح، أم أنها أنينها المتناهي من غرفة الولادة. تلك الترانيم القريبة من لحن أوشك أن يعرفه، غير أنها انقطعت بمجرد دفعه للباب. لحقه صوته:

ـ هل معك أحد؟

ـ امرأة تلد.

ـ هل معها أحد؟

ـ لا أحد.

مال بجسمه ليخرج الورق من الدولاب الزجاجي، وبينما كان الواقف في غرفة الولادة لا يرى من النخل سوي جذوعه الباسقة، كان المستلقي يرى الجريد متدليا كأنما من السماء، فخطر له أن الترنيمة كانت " يا جريد النخل العالي".

خرج بالورق من الغرفة، واصل كلامه بأنها بكرية، وأمامها وقت حتى تلد، سيمضيه معه، لكنه لم يجده. كأن أحدا انتزعه فجأة. من أمام باب العيادة جاءه صوته:

ـ أمامك وقت إذن؟

ـ نعم .. وقت طويل.

أطل في بئر السلم، لكنه لم يدركه. كان الصوت المعاتب بعيدا:

ـ يا للحجاب! شهدت الكون ولم تشهد المكوِّن.

وضع الورق علي مكتبه حزينا وصرخ: يا ليلي! فخرجت من حجرتها هادئة ومنيرة تتلفت. خبط رأسه بيده، وبدا مرتبكا:

ــ أروي أم ليلي؟

ــ وهل هناك فرق؟

لم يرد. هذه عادته حين يفاجئه السؤال. يتزاحم فجأة أكثر من موضوع علي لسانه، فيجيب إجابة لم يكن يقصدها، أو يبص لجهة أخري مصابا بحبسة في الكلام، فقد تزامنت رغبته في معرفة لماذا طلبه أول أمس، ومعرفة أخباره، مع تذكُّره المباغت أن الدرويش المداح علي مدي عشرين سنة كان يرتدى نفس الجلباب، وأن الصبي الذي لا يكبر ويقود الحصان ويوقع في ذات الوقت علي الدف هو ابنه، وأن العربة علي مدي عشرين سنة أو يزيد فارغة، لا شيء عليها، وأنه بالسرعة التي تجاوزه بها هذا الصباح، فإنه يذرع المدينة من شمالها إلي جنوبها في خمس دقائق وعشرين ثانية، لكنه لم يدر لماذا غيَّر الدرويش طريقه هذا الصباح؟

ألم بسيط، لكنه غامض ومتفرق. شعرت بالمباغتة رغم توقيته المتوقع. خالجها شعور بأن شيئا غير عادي سوف يحدث، وأنها تخوض وحدها ــ في طريق قد ينحدر في أي اتجاه ــ رحلة قد لا تنتهي بالضرورة نهايتها المعتادة. نوبات من ألم مبهم. تتقلص بطنها وتتكور، فتسلم رقبتها للخلف، وتسند بيديها أسفل ظهرها حتى

يزول. تغمض عينيها وتشم بأنفها فانلة صغيرة وجلبابـا ملونـا مفتوحا من الخلف، وطرطورا من التل الأسمر، فترى كم سـيكون لائقا بالآتي ملابسه الطفولية وعقد اللؤلؤ المنفرط.

ــ إديني عمر وارميني في البحر.

راديو الجيران أم كلمة عابرة لشخص بالشارع؟ لمـاذا حواسـها اليوم مرهفة لهذه الدرجة؟ وقعت عيناها علـى عزيـزة بـشعرها الأحمر تضبط فيونكتي شعرها، فأغلقت النافذة بسرعة. تحب عزيزة جدا لكنها لم تكن ترغب في رؤيتها اليوم. فتحـت البـاب لتخـرج، فوجدتها أمامها بشعرها الأحمر تمد ذراعيها الـصغيرتين، حاملـة صورتها ذات الفيونكة الحمراء في يد وملف التقديم لأولي ابتـدائي في عام قادم في يد:

ــ تانت أروي.. بتقولك ماما.. دبسي لي الصورة هنا.

في رسالته المقتضبة، أخبرها راشد أن المدة قـد تطـول، لكنـه حتما سيعود إلي ملكته أروي وأميرته التي ستخرج إلي الحياة. فـي ردها لم تخبره أنها صارت وحيدة، وعبد المجيد الصعلوك مـضحك الملوك قد خانها ولم يعد يجيء بمجرد التفكير فيـه، ومـا إن أتـم الطبيب فحصه مؤكدا أنه سليم حتى مات، وأن البيـت الـذي كـان فسيحا بهذا الشكل الذي يعرفه، فرغ حتى من الحصان البني البعيـد، وأن عزيزة الصغيرة سوف يضيع عليها عام دراسي كامل من أجل اثني عشر يوما.

فقط تساءلت: إن كان بإمكانه أن يتصور أنه لكي تدخل عزيـزة المدرسة هذا العام، كان لابد أن ينقص عمر أمها اثني عـشر يومـا أخري.

أغلقت الشبابيك وبابي حجرتيها علي الفناء، وقالت لعزيزة التـــي فاجأتها بالملف والصورة واقفة أمام بوابة الفنـــاء: لمـــاذا صـــحوت مبكرا يا زيزي؟ لا تنسي أن اليوم عيد ميلادك. كـــل ســـنة وأنـــت طيبة. قبلة لك وهذه لماما فاطمة. أوشكت أن تقول إن ماما فاطمـــة تعني جدتها، وأن ماما الحقيقية هي عزيزة، وأن ما يحدث تزييـــف كامل لن يغتفر لوعي الصغيرة، لكنها صـــمتت وأرجـــأت تـــدبيس الصورة حتى تعود عندما غالبتها الـــدموع، لمجـــرد أن زيـــزى لا تعرف ماما الحقيقية، ولو بخدعة مؤقتة من باب الشفقة مـــن قبيـــل: ماما عزيزة مسافرة وعندما تعود ستحضر أشياء كثيرة.

صعدت المنحدر وأخذت طريق الكورنيش، فلم تر النهر. كانـــت نوادي النقابات تحجبه: التطبيقيين، الزراعيين، المعلمين، الشرطة.

ـــ أين النهر؟

وحدها علي الساحل الممتد من الطريق حتى المجري الحقيقـــي، والذي آلت وراثته إلي النوادي، تصيبها الوحشة وهـــواء الـــصباح البارد والسكون الغريب، والألم يستحيل أكثر شراسة حين يتكوم في البطن ويضرب في الأسفل كأن شيئا سيسقط. تكتم الآهـــة وتنحنـــي إلي الأمام كي يخف الألم، حتى بدت وهي تغالب الألم وحـــدها فـــي هذا الطريق الفارغ ذي النسمة الباردة كمن يطلق عليه النـــار فـــي مكان فسيح فيتلوى في الهواء قبل أن يسقط. مالـــت إلـــي شـــارع النبراوي، تحتمي بالبيوت الصغيرة والأرصفة. كـــان أكثـــر دفئـــا وحميمية من الكورنيش. قبل أن تـــصل ســـوق الخـــضر بزحامـــه وصخبه، انحرفت يسارا في شارع يوازي الكورنيش وشارع السوق لكنه نائم وهادئ. بدت غير لافتة للنظر، وهي تتكئ كعجوز علـــي الحيطان لتتفادى الألم الذي يتجمع في ظهرها ثم ينفجر كعيار، وبات

واضحا أنه في ذات التوقيت بدأت رحلتان لكائنين، يسعى أحدهما للخروج بكل عنفوانه من آخر يتشبث بالحيطان وبفتحات الأبواب. وبدا أن هذا الطريق لا تعرفه. ولا تجدي في معرفته أقوال من مروا. روح تنفصل عن روح، ونفس تنعتق من أسر نفس، فكيف للكلام أن يعبر عن رحلة تتعطل فيها الذاكرة، ويسير المارة كأحصنة مغماة في نفق؟

انطلق الصوات من داخل بيت إمام الفنجري، فهرع الواقفون أمام دكان سمير البقال والمتراصون أمام المحكمة الشرعية. استراح إمام الفنجري من إدخال يده في القرح الغائرة التي ملأت جسمه، كأنه يدخلها في سيالة دون وعي، واستراح من الصراخ المتواصل. أسرعت حتى وصلت إلي شارع المديرية، بنصفه الأيمن التجاري وصخبه حتى المحكمة، ونصفه الأيسر بصمته الواضح حتى الكورنيش رغم البندر والمديرية وعمر أفندي الجديد والمطافئ، فأذهلها أن تكتشف الآن فقط أن للشارع نصفين: نصفا حيا ونصفا ميتا. اتجهت إلي اليسار. باغتها الدرويش المداح قادما من النصف الميت. أثار حنقها تعليقه لحصان في عربة قذرة. ودت الاشتباك مع الدرويش الذي لا يعلم أن الأحصنة للركوب فقط والجر للبغال، لكنه لم يقف. كان الحصان عفيا يشبه إيقاع حوافره المنتظم الرقص، حتى أن الدرويش الواقف علي سطح العربة المارقة لا يسقط، يخرج بخار الصباح من منخاره طازجا. ودت لو توقفه وتطلق سراح هذا الحصان في الخلاء، فالأحصنة لا تهان بهذا الشكل.

للأحصنة حب لا تقاومه. شعرت بروحها تنسحب عندما انسحب حصان كان يتطلع وحيدا في واجهة عمر أفندي الزجاجية حين أحس بصاحبه يقترب. جذبتها أذناه الدقيقتان وقصته الطويلة، وشكل

الرأس، حركة جفونه الذكية، وسرجه الملـــون، وجـــسده البنـــي اللامـــع وقوائمه الرشيقة وبطنه الصحيحة، ولمعة الذكاء في عينيه. قالت مـــستحيل أن يكون حيوانا هذا الفرس البني الواقف وحده أمام عمر أفندي، يتأمل في الزجاج، لا يهتم بالسيارات ولا بالمارة، ولا يأخذ السكر من أحـــد ويهـــز رأسه بالرفض كلما اقترب أحد من اللجام، وحين شعر بصاحبه من خلـــف الزجاج يتجه إلي الخارج، هز أذنيه وتحرك باتجاهه، فامتطـــاه صـــاحبه الذي بدا كأنه كان يغلقه كسيارة بمفتاح وسار به سيرا وئيدا.

كانت ترنو بحسرة في امتداد شارع المديرية إلي الحصان والدرويش. لم تتبين من الزحام والنشاط غير المعتاد في النصف الصاخب من الشارع أن اليوم هو الإثنين، حيث السوق الأسبوعي، وإنما تبينت أنه كذلك حـــين رأت مدخل عمارة أندراوز خاويا من المرضي والمحلات بجواره مغلقـــة. قبل أن ترتد متحيرة، أشارت نعمات الملط أنه فوق ينتظرها. لم يكن ثمـــة أحد بالشارع سواها ولم يبد أن نعمات تكلمها. واصلت صـــعود الـــسلالم، وتنفست بارتياح حين رأت مستطيل الشمس المشرقة خارجـــا مـــن بـــاب العيادة. اتكأت بمرفقها علي الباب وظلت صامتة.

لم تعد تشعر بالألم كما كانت في الطريق، ولم يكن بأذنهـــا ســـوى وقع أقدام راشد والذي سيشبه صعوده وقع أقدام حصان يجري. تعرفه من رائحته الأشبه برائحة برتقال حادة، تمكث في المكان حتى بعـــد رحيلـــه، عالقة بملابسه وبكل ما يلمسه. قامت من السرير، تتمشى ببطء في الصالة بين نوبات الألم، تطل على السلم بلهفة كلما هبـــت رائحـــة برتقـــال. لـــم يخرجها من شرودها إلا سؤال الطبيب:

ــ أين راشد الآن؟

لفظه الباب بقسوة ثم انغلق، فلطشه هواء بارد. لـم يقـو علـي التحديق في شمس فضاء خاو، ولم يتبين من الدفعة الغاضـبة فـي ظهره أو الباب الذي انغلق بقسوة شيئا يذكر. تقـدم راشـد للأمـام واستدار وحدق بعينيه. لم يكن مكانا يعرفه ولم تكن ثمـة حديقـة، وحيثما كان يراها دائما، لم تكن هناك. حاول الدخول، لكـن البـاب الذي لفظه منذ قليل كان قد أغلق. من أيـن جـاء إذن بكـل هـذه الأشياء؟

سار طويلا، حتى قابله أحد المارة. سأله عـن الوقـت، فقـال: العاشرة. وضع يده علي جبهته المتورمة محاولا التذكر:

ــ في أي يوم نحن؟

ــ الإثنين.

كانت كدمات جبهته مريعة وهو يستطرد في الاعتذار ويستفـسر عن الشهر والسنة، حدق المار في ملامحه متوجسا، ثم هرول.

واصل السير تاركـا نفـسه لإعلانـات الـشوارع، ولوحـات الأتوبيسات. وبقدر ما كانت ذاكرته تنتعش ببطء كلما توغـل فـي الشوارع والزحام، تبين من تخبطه أنه عنصر معوق لمارة يسيرون بسرعة، ويعرفون فيما يبدو اتجاهاتهم بـشكل صـارم فـي هـذه الشوارع المربكة.

كأسير بصحراء واسعة لا يؤدي السير في أي اتجاه منها سـوى إلي خواء، كان يشعر أن أحدا بيده أمر هـذه البيـداء، بإمكانـه أن يخرجه منها إذا شاء. بينما بدا منزعجا كمن تأخر في نومـه عـن شيء هام، كان يستيقظ على نار تهب علي مرمي بـصره باتـساع الأفق، تسوقه أمامها فزعا، تقيل حيث يقيل، وتبيت حيـث يبيـت،

فيظل راكضا أمامها حتى تحاصره في هذا المكان الذي يأخـذ فـي الضيق تدريجيا حتى يتفاقم شعوره بالعزلة، ولا يكون ثمـة سـوى باب مغلق، يطرقه بإلحاح بكلتا يديه. وقبيل توقف أعضائه تمهيـدا لإصابتها بالعطب، فإن ثمة من يجذبه من الخلف باتجاه النار:

ـــ ماذا تفعل؟

ينتبه علي جبهته التي تدمي من كثرة الارتطام بالباب الموصـد، وكبقية من أسرى تعدو باتجاه مدينة مهجورة، تتدافع الأحداث بغيـر انتظام إلي ذاكرته الممسوحة، فتختلط وتتداخل الأماكن والأزمنـة، ولا يدري في أي هذه الأماكن كانت البداية، ولا أيها أفضى إلي

الآخر، فثمة من يعذبه مجاورا لمن يربت كتفه، وسيدات مهذبات يشرن نحوه بعلامة النصر، وفتيات يقبلنه وهن يقدمن إليه باقات من ورود، يتبين كلما اقتربن منه أنهن يرتدين بلوزات قطنيـة عليهـا صورته، وأيد كثيرة تفحصه، وأصوات بلغات مختلفة تتناقش حوله، وتنقل ما يقوله، وأجهزة يتعرض لها، كـأجهزة أشـعة، وبطاقـات ورسائل تحية، وهو مقعد بكرسـي متحـرك، أو بـسرير أبـيض، وأكاليل تتعلق برقبته، وخطب تلقي، ومنـصات وأقفـاص وأقنعـة موصلة باسطوانات، وصراخ وألم، وجروح وأربطـة وضـمادات وأدوية وزيارات ولجان وتقارير، وجبهة تدمي، شبه ممـسوحة، لا تكفي الرواسب العالقة بها لتكوين شيء مفهوم.

هل كانت البداية عمله المؤقت أثناء الجامعة في فترة المعـرض، كموظف استعلامات، لإرشاد العارضين والزوار؟ ومثل أي شـاب

متحمس يري الرقص فيتحرك جسده، نسي أنه يعمــل بــالمعرض، وهتف مع الغاضبين أمام جناح إسرائيل؟ كان طوله الفارع وصــوته الجهوري وشارة العاملين بالمعرض علي صدره أكثر ما لفت انتبــاه السياج الأسود الكثيف من قوات الأمن المركزي، فطوقــوا الجنــاح بالغاضبين وعزلوهم تماما. كيف تفرقت أفــواج الغاضــبين دون أن يدري، ومتى ضيق سياج الأمن المركزي الخناق حوله وحده وقــد بُحَّ صوته وهو يهتف كمجذوب في حلقة ذكر؟ لا يعلــم عــن ذلــك شيئا، فقط، أخذوه وحده، سلموه إلي شرطة المعرض، حيــث وجــه عقيد اسمه: سمير عبد ربه شتيمة بذيئة جدا له ولأمه فقط، وحــين نبهه إلي أنه يعمل في الاستعلامات، شــخر وســب الــدين لإدارة العلاقات العامة كلها، ثم وجه له اللكمات بنفسه، وكان بــاب الإدارة الذي دخل منه هذا الصباح بهذه الشارة كموظف هو ذاته أول بــاب يلفظه. ظلوا يدحرجونه عبر الطريق حتى عمارات الضباط التي لم تسكن بعد. إلي متى ظل مرميا بين عمارات الضباط ؟ وكيف عــاد إلي البلد و كيف ربتت كتفه ثم بصقت علي المعرض، فــي اليــوم السابع غالبا سألها فقالت: ألا تعرفني؟ قال إنه غيــر متأكــد، لكنــه يعرفها، فبصقت مرة أخرى علي المعرض وقالت:

ــ خالتك نعمات.

لم يمنع بعدها فحسب من الاشتراك في العمالــة المؤقتــة مــرة أخرى، إنما تسبب في استحداث نظام قبول آخر أكثر صرامة، يبــدأ بمقابلات وأسئلة معينة ودقيقة، ثم تعليمــات مــشددة مــن شــرطة المعرض ضمن برنامج مكثف لمدة أسبوعين قبل بدء المعرض، أقله عن طبيعة العمل، وأكثره تعليمات أمنية، ينتهي بتعهد كتــابي مــن الشخص المقبول بألاَّ ينخرط في المسيرات.

ظل جسده يؤلمه، فسار إلي جوارها بطيئا وشاردا وغاضبا، لا يعرف علي وجه التحديد لكمات من التي أفقدته اتزانه. سياج الأمن المركزي، أم العقيد سمير عبد ربه. كانت تتكلم وهو يحدق فيها كتائه، وفي اليوم السابع سألها، فقالت: أروى. صرخ بدهشة:

ـ الملكة أروى؟

دخل مجلس المدينة. كان ينهي أوراقا من إدارة حماية الأراضي، حين سمع من الراديو الصغير أمام الموظف أن السفير الإسرائيلي سيسلم اليوم أوراق اعتماده. تزامنت قراءته للافتة علي باب الإدارة مع سماعه الخبر في موجز العاشرة، فخبط المكتب بصوت عال. أمر الموظفين الذين يهملون في مهمتهم الأساسية بالقيام والتجمع في حجرة واحدة. لم يكن متأكدا من امتثالهم لهذه الدرجة أمام صراخه العالي. ساد المجلس الهرج، وحدقت العيون نحو الإدارة، التي ساد موظفيها الصمت والذهول والرعب، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال :

ـ ما قلته لكم.

متى تكهرب الجو واتصل مدير الإدارة برئيس المجلس الذي طالبه بالهدوء واتصل بالبندر؟ ومتى جاء الضباط الثلاثة الصغار لينفذوا من وسط الزحام ويسألوه عما يريد، ومتى انصرف أحدهم وجاءت هذه الرتب الكبيرة، وكيف نسي راشد ما جاء من أجله، وتذكر فجأة ما حدث بمعرض القاهرة؟ استفزته عجرفة الضباط الثلاثة التي لا تتناسب وسنهم الصغير فلم يرد علي أسئلتهم، ولم يعر اهتماما لتحذير الرتب الكبيرة بأن الناس الذين يحتجزهم ـ إن لم يكن يعرف ـ رهائن، وأنه يعرض بذلك حياتهم للخطر. لم يكن

يعرف حقيقة ما ستؤول إليه الأمور، لكن إهانته في المعرض علي يد العقيد سمير عبد ربه تجسدت أمامه، فزعق قائلا إنه يعرف ما يفعله، وبدت فجأة الفرصة سانحة ـ والضباط الكبار موجودون ـ ليسبب الإحراج للجميع. لم يخطط لذلك بالتأكيد، فلم يكن في الوقت متسع ليدرس العواقب، إنما جاءه ذلك في لحظة، كوحي أو كهاجس فقرر أن يتمادى ويتبنى هذه الفكرة، كنوع من الثأر، منتشيا كلما تفاقمت الأمور، ولا يعرف نفسه من أين أتاه هذا الإصرار علي رفض مساومات مدير الأمن، فأبوه عبد المجيد، وشيخ الناحية وأقاربه، وأهالي المحجوزين، وإمام مسجد البحر، ثم المحافظ، ثم الوزير. حذره الجميع من عواقب ما يفعل عبر الميكروفون، وهو يرفض أن يلين، حتى جاءه صوتها الذي ميزه عبر الميكروفون، ميزه علي الفور إذ كانت تبكي بصدق، نفس البكاء المكتوم يوم قابلها لأول مرة، كيف جاءوا بها ولا أحد يعلم بعلاقتهما الجديدة، بحشرجة بكائها المختنقة التي يعرفها:

ـ من أجلي .. قل لهم ماذا تريد .

تهدُّج الصوت وحده، وحنينه الواضح، هو ما جعل مقاومته تخور. كيف أتوا بها؟ تلفت حوله. لم تكن التي بيده خشبة إذن كما ظن، إنما كانت بندقية، وكان الذعر في عيون الموظفين المحتجزين قد بدأ يقل فنام منهم الكثير. من أجل البنت الرقيقة فقط لا من أجل الآخرين تكلم. طلب أن يعتذر الضابط الذي ضربه في سوق القاهرة.

ـ نعتذر لك جميعا بالنيابة عنه.

ـ ويعود السفير الذي سيتسلم عمله اليوم.

ـ ماذا تقول يا روح امك؟

ــ كما سمعتم.. ومن أجل بذاءتكم، لا بد أن يعتذر لـــي ســـمير عبد ربه شخصيا.

سمع بكاءها بالخارج والميكروفون يبتعد عن فمها وهي تختنـــق، وقولهم أن يأتوا بالعقيد سمير عبد ربه حالا. تذكر أنه لم يـــنم منـــذ أول أمس، وكان الفجر قد اقترب، والموظفون الذين أكلوا ناموا، ولم يبد أنهم مرتعبون، ولم يعتذر له سمير عبد ربه عن ضربه وإهانتـــه في المعرض، بل انقطع النور وبدأ ضرب الرصـــاص، فتحطمـــت نوافذ الأرشيف والحمامات والحجرات. ظل الموظفون في أرضـــية الحجرة منبطحين. كان الرصاص يجيء من كل اتجاه، وكان مرهقا لا يدري أي النوافذ تتحطم من الرصاص، ومن أي النوافـــذ يـــدخل القناصة في هذا الظلام، ومن أين أتي كل هذا الضوء الباهر من كل النوافذ، ومن أين جاءه كل هذا الرصاص وما زال يشعر أن الـــنفس يجري في صدره، وكيف مرت هذه الربع ســـاعة الطويلـــة، وهـــل كسرت فقرتا ظهره هنا أم في المعتقل، غير أن ذاكرته التي شوشت فلم تميز بين المحامين الذين تطوعوا للدفاع عنه وأعـــضاء اللجـــان التي زارته، كانت ما تزال محتفظة بأن الذي كـــان فـــي مواجهتـــه والذي دخل عليه وهو مضرج في دمائه وأكمل عدد الطلقـــات فـــي ظهره إلي واحد وسبعين طلقة، كان هو العقيد سمير عبد ربه.

بدا متعجبا: من أين يجيء كل هؤلاء الناس؟ لم يدرك تحديدا عم يتكلمون، أو يخص الأمر من علي أي نحـــو، لكنـــه كـــان ســـعيدا ومبتسما رغم الكرسي المتحرك والضمادات، كأنه في محكمـــة فـــي داخل حلم، يحضر جلسات ويغيب برغبتـــه عـــن جلـــسات. كـــان مسترخيا وهادئا أكثر من ذي قبل إلا عندما رد سمير عبد ربه على أسئلة المنصة، فإنه قاطعه وزعق وهتف ضـــده وردد النـــاس فـــي

القاعة خلفه الهتافات، دون أن يستمع إلي تحذيرات المنـــصة. عـــدا ذلك كان متعاونا ينفذ الأوامر حين يذهبون به إلي الطبيب، أو يمثـــل تحت لجنة من الأطباء. يفتح فمه للأدوية، ويمـــد ســـاعده للحقـــن. تحاليل وعمليات وضمادات، ومسامير وشرائح في ساقه وكماشـــات تعض في ظهره، وأقنعة أكسيجين وخدر لذيذ، ومطـــارق يـــسمعها بأذنه ولا يتصور أنها تعمل في جسده الذي لا يتحرك، وممرضـــات ودوسيهات و تقارير تروح وأخرى تجـــيء، وحـــين ابتـــسم أمـــام الكاميرات، ورفع إصبعيه بعلامة النصر، أتوا به إلي هنا. هل كـــان في المصحة منذ قليل؟ لا يدري. ينتابه الشك أحيانا فـــي كـــون مـــا يتوافد علي ذهنه الآن قد حدث بهذا النحو، وقـــد لا يكـــون حـــدث بالمرة، وربما يكون قد حدث في ذهنه هو فقط. يشعر أنه مـــا زال يفتقد السياق الذي يضم هذه الأحداث المتداخلة ويفـــسر لـــه كيـــف تجتمع في آن الدمرداش بالعباسية، وقسم ٦ جراحة عظام بقـــسم ١٠ جراحة أعصاب، وأرض المعـــارض بـــالحرم الجـــامعي ومجلـــس المدينة.

اعتاد بعد كل جلسة وبعد أن يتناول عقاقيره، وزوال الألـــم مـــن جسده والدوار من رأسه، أن يرى عبر الزجـــاج أطفـــالا كثيـــرين بحديقة واسعة يحيطون بطفلة تكبر كل يوم. يمرح الأطفـــال حتـــى ينهكهم التعب، فيرقدون علي النجيل تحت ظل الشجر. يحدق أكثـــر فيراها في وسط الحلقة تماما، مضيئة كشمس، يطير شعرها المنسدل للخلف وهي تقفز لأعلى كأنها تنط الحبل. يحدق فيرتفع ذيل فستانها الأبيض ويرتفع نهداها الصغيران في انطلاق، وفيما يخـــشى علـــي تاجها الملكي من الاهتزاز، كانت تضحك ولا يسقط. ينـــزل الـــسلم بخفة، لا علاج ولا أكل، ويخرج إلي الحديقة، فتصحو الشمس كلمـــا

اقترب من الحلبة، وتتبعث الموسيقي الصاخبة، ويتعالى نقر الدفوف، حتى أن العصافير الملونة تطير بعيدا عن الشجرة. ما إن يدخل الحلبة حتى تنبت له أجنحة، ويشتعل الرقص ولا يسقط تاجها الملكي حتى وهم يقعون على النجيل ويلهثون من التعب ويبتسمون. تتلاقى نظراتهما، فتبتسم من خوفه على سقوط تاجها الذي لا تحرص عليه، لأنه تاج غير حقيقي، وفيما يسألها عن اسمها، يجد من يقيمونه بإرهاق عن النجيل الأخضر، ينزعون أجنحته التي نبتت ويثبتون مكانها ذراعين ويأخذونه إلي الداخل:

ـ يكفي هذا اليوم .

كان يطرق الباب الموصد بكلتا يديه وجبهته. من خلفه صحراء واسعة، ونار تحاصره، ويد تجذبه للخلف. كان يصر هذه المرة علي أن يعرف اسمها، وحين قالت: أروى، انفتح الباب، ولفظه بقسوة ثم انغلق. لطشه هواء بارد، ولم يقو علي التحديق في شمس صباح خاو، وحيثما كان يراها دائما، لم يجدها، ولم يجد الحديقة. حاول الدخول، لكن الباب الذي لفظه الآن كان قد أغلق.

للنهر نصيب معلوم من الأطفال كل عام، يقتنصه عنوة، رغم كل الاحتياطات والتدابير. يعرف الجميع ذلك.

يتكرر المشهد كل عام، بحذافيره، كأنما الدنيا لا تتغير، "يا لهوي!" تخبط الأكف الصدور بلهفة، وتعلو النداءات. يتم البحث في محيط الدور والأسطح والشوارع، وينتشر الرجال والأطفال والنساء علي الشاطئ يفتشون في مياه النهر المتسع.

كان الوقت مغربا حين وقف علي محمود في طرح النهر، يغمره الماء حتى صدره، ينقذ كيزان الذرة في طشت عائم قبل أن تغمرها

المياه، حين التفت إلي أروي التي كانت واقفة علي حجر كبير فلم يجدها. كيف أظلمت الدنيا فجأة، وسيطرت كائنات النهر علي الوضع حتى بدا صراخه ضعيفا؟ خرج الناس من حارة الدهشان والشدية بالمشاعل وكلوبات الجاز، يحدقون في الماء ويخوضون بين عيدان البوص والذرة، يبحثون عن أروي بفستان أبيض وفيونكة حمراء، في الخامسة، غافل النهر أباها وخطفها. اندفع الصيادون بقواربهم الصغيرة إلي وسط النهر. قضوا الليل في الماء، يعلو ضجيجهم كلما رأوا شيئا طافيا. أعادوا البحث – حين شقشق النهار – بين البوص وجذور الأشجار، وتسلق آخرون كوبري القطار، مدلين برءوسهم في الماء العكر، محدقين في العمق، ووقف آخرون علي كوبري كفر الجزار، والتحموا علي الشواطئ بأهالي وروره ودملو وميت الحوفيين وميت برة، وكلما استخرجت جثة تدافعوا للتعرف عليها.

هل يسير الموج بجثة أكثر من خمسة وعشرين كيلو في ليلة واحدة؟ وقف البعض علي كوبري ميت غمر، في انتظار مرور أي جثة، مقررين العودة لعدم الجدوى من البحث خلف كوبري ميت غمر وحتى كوبري المنصورة.

انحسر النهر، وتخلف عن الفيضان غرين وطمي، ورقدت مشلولة عيدان الذرة من غمر المياه، ومرغت في الطين أعواد البوص والقصب الأحمر. زالت الرهبة فخاض الناس في الطمي، ووصلت أرجلهم إلي حافته، فحدقوا في مجراه الحقيقي. عاودوا البحث في البيوت، بين الأسرة وعند الجيران، وعاود المنادون النداء. لم ترد أروى، فتيقن الجميع أن البنت ذات الفستان الأبيض والفيونكة الحمراء كانت منذورة للنهر.

للنهر نصيب معلوم من العيال، يبلعه كل عام عنوة، مهما كانت الاحتياطات والتدابير. يعرف الجميع ذلك. لكن محمد البيه جلس علي المجري الحقيقي، وعمل وِفْقاً مخمساً بآية" وانكحوهن بإذن أهلهن" ثم علقه علي سبِيْة الرمان، وأطلق بخور النِّد واللدان العنبري، وتلا آيات الزَجر، وأخرج ملوك وخدام الآية الشريفة، ثم أقسم علي الملوك السبعة المقدسين بين يدي رب العالمين، أن ينزلوا أرواحهم العلوية، الموكلة بخدمة الملوك السبعة العلوية، لينزلوا علي السبعة ملوك الفلكية، فتنزل السبعة الفلكية علي السبعة الهوائية، والهوائية علي الرياحية، والرياحية علي الغمامية، والغمامية علي السحابية، والسحابية علي النارية، فالسحرية علي الترابية، فالأرضية فالمائية فالقرارية فالغواصة، وأن ينزل السبعة الغواصة علي من تمرد وعصا وطغى من جنود إبليس أجمعين، فيأخذوا بنواصيهم وبأفواههم مسرعين طائعين، بالله الذي لا إله إلا هو، نور علي نور،عزيمة علي كل مارد عنيد، وشيطان مريد، من ملوك الجن والشياطين والأبالسة. ألا تعلوا عليَّ وائتونى مسلمين. ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا. ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا. ووكل خدام القسم بأن يحضروا أروي بنت سكينة، إن كانت مختطفة، وإلغاء قرانها إن كانت متزوجة من ملوك الجن، وأن يخبروه عن مكانها حتى ولو كانت في بطون الأسماك.

ــ أنت في المرحلة الأولي.

بدأت الرحلة إذن، فكم مرحلة عليها أن تمر خلال هذا النفق المظلم؟ هل يجدي إغماض العينين؟ أي المراحل ستنسي وأيها

ستعلق بالذاكرة؟ في هذا النفق لقيت نهلة وعزيـــزة حتفهمـــا، فهـــل ترجوه أن يأخذ باله منها، وأن يولـــدها بالراحـــة. هـــل تـــصارحه بمخاوفها أم تصمت؟ عيناه تطمئنانها، وليس غيره هنا سوى نخيـــل يملأ الشباك بسباطات حمر، وسماء زرقاء، وقرص شمس وهـــواء خريفي. أغلقت الزجاج. كأنها ممددة علي سرير تحت السماء، بعيدة عن صخب الشارع، كأنها تطوف في الفـــضاء. اســـتعادت كلمـــات نعمات الملط وهي تشير أن تصعد لأنه فوق، ينتظرها. تتمدد بـــصة نعمات وإصبعها الذي أشار لأعلي، فترفعها كريشة في الهواء.

لماذا جاءت هنا؟ كانت ترجح الولادة بالمستشفي كلمـــا تـــذكرت نهلة وعزيزة. أتكون نهاية الرحلة هنا؟ حاولت أن تتجنـــب رؤيـــة عزيزة الصغيرة التي ولدت في مثل هذا اليـــوم، فرأتهـــا مـــرتين، وكانت بالأسبوع تغيب عنها ولا تراها. والأجنة الصغيرة كعصافير ملونة لم تعد تأتيها في الحلم متشبثة بعنقودها وتنقره بمناقيرها، فهل تجتث الشجرة أم تنبت براعمها وتزدهر؟ وماذا سيأخذ الآتي منهـــا وماذا سيدع؟ استدارة الوجه؟ أم العيون التـــي تحلـــم ولا تواصـــل التحديق؟ لمعة التوقد والحيوية أم النزق؟ تتغلب علي ما تـــراه فـــي الأحلام والكوابيس بأن تترك في كل مكان شيئا منها. تخرج الصور من الألبوم. تكتب التاريخ في الخلف واسمها وأكبر قدر من الوصف لمكان اللقطة، ثم تضعها في أماكن بارزة ولافتة. هل تفيـــد الكتابـــة علي الجدران؟ حتى هذه فعلتها، رغم إدراكها أن كل هـــذه وســـائل العابرين. قررت أن تستسلم. موتة واحدة أم موتتان؟

تناهت إليها رائحة برتقال ينضج، هل جاء راشد؟ ثمـــة أحاديـــث بالخارج. منتشية قامت من السرير، خرجت إلـــي الـــصالة بخفـــة، فداهمتها الرائحة. دفعت الباب وتلفتت في أرجاء المكتب:

ـــ مع من كنت تتكلم؟

فتح عينيه في دهشة كأنه ارتبك. جلدها بنظرة مندهشة وصامتة. أدركت علي الفور أنها اقتحمت حجرة مغلقة وألقت سؤالا بطريقة فجة. اعتذرت وهي ترجع بظهرها للخلف وتغلق الباب:

ـــ تخيلت أن راشد جاء وأنك تكلمه.

عاوده الإحساس بأن وجودها في العيادة سيحد من حريته. أنقذها من ارتباكها وهي تتقهقر أمام نظرته الصامتة:

ـــ لا أحد.

وقعت عيناها علي كوبين من الشاي علي مكتبه، فصرخت كطفل صدق حدسه، وأشارت إلي الشاي وقد بدت أكثر تماسكا ومكرا وهي تفتح الباب مرة أخرى وتبتسم:

ـــ هذا الشاي لي إذن؟

ـــ نعم..

جلست أمامه. قالت وهي تأخذ الكوب إنها كانت تستطيع أن تعده بنفسها ما دامت نازك غير موجودة، خاصة أنها كانت في حاجة إلي هذا الشاي الآن. كان كلامها ودودا كأنها تعتذر عن دفعها الباب بطريقة فجة، وكان هو يشم خليطا من رائحة العود والصندل والمسك، وتتطاير في الحجرة أبخرة لزيوت عطرية. استشعر في بقية الكوب طعم الزنجبيل بينما كان وجهها الطفولي يحتل المشهد، وتبدو رقبتها كأنما ينقصها بالفعل عقد من لؤلؤ. تدفعه بكلامها اللطيف نحو مساحة رحبة من الهدوء والسماحة، فيبدو كأنه التقى بها فعلا في أزمنة سحيقة. كانت تشرب، فتتوارى في الخلفية نهلة عبد الواحد وعزيزة السيد، وتختفي تماما متاعب المهنة، ومناوشات الدايات وحلاقي الصحة، ووصفات الأهل والعجائز الشعبية. تشرب

فيتلاشى القلق من مجيء الحالة متأخرة عن موعدها أو مبكرة جدا، ولا يشغله هاجس الأمراض المصاحبة للحمل، الظـــاهرة أو الدفينـــة التي لا يمكنه اكتشافها، وتعاوده أسئلة أخرى: لماذا لم ير الـــدرويش ــ ولو لمرة واحدة ــ ساكنا؟ بل سائرا بعربته وبنفس الـــسرعة، لا يسقط من مطبات أو ملفات، ولا حتى يختل توازنه أو إيقاعه. ومـــا الذي يجعل كل الحالات التي بها مشاكل تتـــساءل إن كانـــت موتـــة واحدة أم موتتان قبل أن تصر علي البقاء؟

أصرت نهلة عبد الواحد ــ بالرغم من النزيف ــ ألا تذهب إلـــي المستشفي، رغم اتصالها خمس مرات في يومين ولا تجده، لا فـــي البيت ولا في العيادة. إجهاض في شهرين، وحين وصـــل متـــأخرا حتى عن موعده، كانت هنا في هذه الصالة تضحك بين نوبات الألم أسفل البطن، وبدت متعبة وهي تهم بالدخول قبله إلي حجرة المكتب كأن شيئا سيسقط منها:

ــ وراك وراك.. هتروح مني فين؟

لم يعرف أن المريضات اللاتي كن بالصالة تنـــازلن لهـــا عـــن دورهن، والرجل الذي انتظره لأكثر من ساعتين لم يمانع أن يظـــل ساعة أخري كي يذهب معه ليكشف علي زوجته. لم يعرف أن التي انتظرته يومين، ورتبت كل شيء حتى تدخل، ستمضي معظم الوقت في الاستفسار عن كيفية الفحص، متنقلـــة بـــين الخجـــل والدهـــشة والخوف وهي تجذب هدومها لتحت، أو أن باله سيطول إلـــى هـــذه الدرجة البعيدة دون أن ينفد صبره:

ــ انت هتكشف ازاي؟

ــ زي الناس.

ــ يا لهوى يا ماما!

شيء ما غير انتظارها له يومين كاملين، ووجهها الأسمر الشاحب الجميل أسفل شعرها المقصوص دفعه لأن يطيل باله، ففي هذه المدينة كلها لا يوجد سوي نهلتين اثنتين، دلوعتين وسمراوين بشعر مقصوص "ألا جرسون"، رقيقتين كالبسكويت، خفيفتي الظل، تضحكان طوب الأرض، لكنه اكتشف الآن أنهما خدعتاه، لتعذر الكشف عليهن. نهلتان كأنهما توءم، أو صورة في مرآة. لم تصدق أن تكون هناك نهلة أخرى تشبهها، وحين قال: نهلة عبد الواحد ونهلة السعيد، صرخت: صحيح يا ماما، وضحكت. أضاف أن هذه الرقة مستحبة في كل شيء إلا الكشف، وطلب منها أن تتماسك فلانت وقالت: حاضر. مد يده، فاختلطت دموعها بالضحك كأنها ستشرب دواء مرا، لكنها فتحت عينيها بدهشة ورعب نحو أصابعه التي في القفاز، ومدت ذراعيها تحمي أسفلها وجلست مرة أخرى وهي تسأل أمها:

ــ هو لازم الكشف ده يا ماما!

ــ أمال هيكشف ازاي يانهلة؟

بكت نهلة كبكاء الأطفال المرعوبين بلا دموع:

ــ ماليش دعوة .. ماهو أنا بسقط أهه .. لزومه إيه الكشف بقه.. يكتب علاج يرفع الدم ده وخلاص؟

نصف ساعة حتى تقتنع نهلة عبد الواحد ببساطة الكشف، الذي هو مجرد فحص بإصبعين لا يستغرق أكثر من دقيقة، للتأكد من التشخيص وتقييم الحالة علي نحو صحيح، ومع ذلك، كانت تقاوم بهلع أصابع أمها وهي ترفع الفستان الجينز، لتظهر كتل الدم المتخثر التي تشير إلي أنه إجهاض محتم، وهي تغمض عينيها

وتكتم فمها بكفيها وتتشهد. نصف ساعة، لا يدري كيف انتقلت بحذافيرها إلي كل فم في المدينة التي كانت في الأصل قرية؟

فحصها، فتدفق الدم كشلال.

علق الجلوكوز، وحقن أدوية انقباض الرحم، وحشاها من أسفل بالقطن، لكن الأمور كانت تتطور بسرعة متناهية، فامتلأ الطبق بالدم، وغرقت ملابسه. نادى زوجها:

ــ شيل بسرعة ع المستشفي.. في حاجة مش طبيعية.

إجهاض مركون، مات ببطن نهلة منذ أكثر من شهرين. والحمل مدته أربعة أشهر علي الأقل، وهناك خطأ لا بد في حسابها للحمل. وموت جنين لأكثر من شهرين دون أن تدري الأم هو ما يسبب كل هذه السيولة في الدم. نزلوا السلالم. لا يمكن إلا أن يكون الأمر هكذا. كان النزيف شديدا ومباغتا. لم يسمح حتى لأن يعتذر للمريضات في الصالة، أو للرجل المنتظر لأكثر من ساعتين. كان الوقت ضيقا فلم يجب حتى عن أسئلة نهلة أو زوجها. كان لابد أن ينقلها بنفسه ولا يتركها لأهلها حتى لا تموت في الطريق، إن لم تمت وهم يتفاوضون كيف يتصرفون.

اجتاز الاستقبال وأخذ المصعد إلي العمليات. سرد لزملائه ما حدث باختصار، ونهلة تلتفت بإعياء تحاول أن تتبين من كلماتهم السريعة تفسيرا لما يحدث. فتحت بطنها لاستكشاف سبب النزيف ومن ثم وقفه، بربط شرياني الرحم أو حتى استئصاله، وتعويض النزيف بقربتين من الدم. شتم الممرضات اللاتي مشين لبنك الدم ببطء، وعدن بعد فترة وقلن إنه لا يوجد دم. أغلب الظن أنه لم يجد وقتا لشتمهن، فأخذ التذكرة وعينة من دم نهلة وجري حتى باب المستشفي، عبر الطريق وصعد بنك الدم. أغلب الظن أنه دفع

الممرضة التي كانت قد تهيأت للنوم، ثم دفع الباب، وفتح الثلاجـــة، وأخذ قربتين لمريضة أخرى ستجري لها جراحة باكر، وأغلب الظن أنه لم يكن هناك وقت ليقول للممرضة التي تزعق كمجنونـــة حتـــى وهو يهرول هابطا السلم: إن التي تموت في العمليات أولي بالقربتين من التي ستعمل بكرة، ولأنهما لم تكفيا نهلة، كان يجري بـــسيارته، معه أهلها وأقاربها الذين توافدوا إلي بنـــك الـــدم الرئيـــسي وبنـــك الجامعة، ليتخطى بطء ممرضات بلهاوات يعقن امرأة تمـــوت عـــن الحياة بإصرارهن علي استكمال إجـــراءات شـــكلية، لكتابـــة اســـم المتبرع علي كل قربة، وملء خانات الدفاتر. كان يجذب بنفسه الدم علي مسئوليته، ويجري للعمليات في المستشفي الأميري.

صارت تسيطر عليه إثر كل حالة وفاة هذه الأسئلة: لماذا مررت اليوم من هذا الشارع وتركت هذا؟ أكان لابد من العودة إلي بيتي في هذا التوقيت؟ لو أتيح له أن يعلم ما يخبئه الغيب من مجهول، لـــسلك البديل، أو تأخر قليلا، ليتفادى هذه المصائب؟

جاء إلي العيادة من طريق البحر، فوجـــد أمامـــه بـــرهم بـــائع الجيلاتي، يخب بذهول وقد سأل عنه ولم يجده، فانحرف بسرعة في شارع الكوبري، اندفع الذين رأوه خلف برهم ليخبروه أن الطبيـــب جاء، لكنه كان قد أوقف سيارة واتجه بزوجتـــه إلـــي المستـــشفي. واصطدم به صدفة محمود الأعرج وكان يبحث عن ســـيارة تنقـــل زوجته إلي المستشفي، فاستنجد به: الحقني مراتي ولدت وبتنـــزف. كانت كتل الدم المتجلط تملأ الهدوم والفراش، فلم يتمكن من قيـــاس الضغط. رغم أنه كان يسمع الصوات، فحصها متـــشبثا ببـــصيص أمل، لكنه أغلق حقيبته وخرج. في الشارع انبثق الناس من الأبواب والشرفات التي فتحت في ذعر لدى عودة برهم سريعا من منتصف

الطريق بنفس السيارة التي أقلته وزوجته، فلم يعد يعرف مـــن أيـــن ينبعث الصوات. آلت الحالتان إلي نفس المصير، التي ذهبـــت إلـــي المستشفي والتي لم تذهب، إلا أنه لم يعرف لمـــاذا احتـــسبت عليـــه نفيسة زوجة محمود الأعرج ولم تحسب عليه زوجة برهم الذي كان يبحث عنه، فيصرخ: لماذا مررت من هذا الشارع ؟ ولمـــاذا جئـــت في هذا التوقيت؟

كان يذرع المسافة بين المكتب والشرفة جيئة وذهابـــا. أحـــست أروي أنه مشغول. أخذت الكوبين وقامت إلي حجرتها دون حتى أن يشعر. كان يطل من الشرفة، حيث كانت وحدها نعمات جالسة علي الرصيف وسط أشيائها. تعجب مرة أخرى كيف لم يرها وهو طـــالع هذا الصباح. استعاد ما حدث في نوبتجيـــة الاســـتقبال بالمستـــشفى أمس، حين سمع صياحا وجلبة. كانت تهرول وتصرخ أمام صـــبية يخوفونها بمصطفى علوان. يسوقونها بالعصي ويضحكون، فيما هي تهذي محاولة الاحتماء بغرفة الصول سيد التي كانت مغلقة. فتح لها باب غرفة الاستقبال ليخبئها، بدا له عن قرب أن ذعرها الـــشديد لا يتناسب مع ضربهم المستهزئ، كما أن ضربا بهذه الطريقة لم يكـــن ليدفعها للاختباء منهم أسفل سلة الملابس المقلوبة، غير أنه بمجـــرد أن منع الأولاد عن باب الحجرة بذراعيه المفرودتين، دخل وعـــدل السلة فلم يجدها.

ــ علام تطل من الشرفة؟

لم ينتبه للسؤال، فقال وهو يستدير من الشرفة مندهشا: إن نعمات المجنونة وبعد ما يزيد علي عشرين سنة يبدو أنها غيرت مكانهـــا. وقبل أن يكمل استدارته وكلامه إلي أروى لم يجدها، وفوجئ بشيخه واقفا خلفه، قبل باب الشرفة بقليل، يعاتبه:

ـــ حتى أنت تقول إنها مجنونة.

أدهشته المفاجأة، فأمسك بيده ليجلسه علي مكتبـــه، وهـــو يقـــول بمودة:

ـــ فقدان العقل جنون، واضطرابه مرض نفسي.

كان شيخه سيد عبد العال ما زال محدقا، كأنه يستنكر ما يقولـــه. استطرد مشيرا بيده إلي البعيد بنغمة مقنعة:

ـــ نعمات مجنونة يا شيخ سيد .. أودعت أكثر من مرة مستشفي النفسية.

ـــ ولماذا لم تشف إذا كانت مجنونة أو مريضة؟

فاجأه السؤال، وبينما كان سيرد بأن كـــل الحـــالات المزمنـــة لا تخف غالبا، فاجأه بسؤال آخر:

ـــ ثم من قال إنها تكون في المستشفي؟

ـــ رأيت بعيني أكثر من مرة شرطة النجدة تـــسلمها بخطـــاب رسمي للمستشفي الذي يحجزها مدة ثم تخرج.

ـــ نعم.. لكن هل تكون نعمات في المستشفي هذه المدة؟

ـــ أين تكون إذن؟

كعادته حين يحجم فجأة عن جواب بعض الأسئلة، إما لبـــساطتها الشديدة، أو لصعوبتها الشديدة حينما لا تتيح الظروف فهمها، يعرف ذلك من ملامحه المستغربة أو إعراضه المفاجئ، أو طريقة أســـئلته القصيرة المتتابعة حين تنتهي دائما إلي سؤال ومأزق.

أوضح لشيخه مستعينا بيديـــه أن ثمـــة حـــاجزا بـــين الـــوعي واللاوعي، يمنع المعلومات القديمة والمهملة فـــي اللاشـــعور مـــن الاختلاط بالمعلومات والأحداث الحديثـــة فـــي الـــشعور، وأن هـــذا الحاجز هو الذي يحافظ علينا متزنين، إذ لا يسمح بمرور أحداث من

هنا إلي هناك إلا في نطاق بسيط في الأحلام أثناء النوم، أو بدرجة أكبر في بعض مراحل التخدير الكلي، بينما ينهار تماما هذا الحاجز في حالات الجنون. وقد يلتئم أحيانا هذا الحاجز عند بعض المرضي بالعلاج أو بالحجز في المصحات النفسية وقد لا يلتئم بالرغم من ذلك. متنهدا وافقه شيخه تماما فيما يقول، لكن باعتبار ذلك من العلم المكتوب، أما بحسب العلم غير المكتوب، وهو الموهوب من لدن علام الغيوب، فإن نعمات ليست سوى مجذوبة تقف في دركها الخاص، الذي غيرته بالأمس، والمجاذيب لا يتركون عادة دركهم الخاص إلا بالموت، أو إذا كان ترتيبا كبيرا سيحدث في الباطن يستدعي تنقلاتهم. المجاذيب يولون ويعزلون، يؤدون وظيفة منوطة بهم في تصريف شئون دركهم، فيمنعون ملاعيب الجان، ويخففون ما يحل من بلايا وكوارث عن أهل دركهم، ألا تراهم ممتلئين بالقمل والقاذورات والعاهات. المجاذيب في الأصل محبون لم تستوعب قلوبهم الأنوار، فانجذبوا وانفصلوا عن الواقع، وفعلوا ما تراه شاذا. وقف شيخه، وقبل أن يخرج أمره أن ينزل لها رغيفا، فهي وسبعة آخرون لم يفطروا بعد، ثم انصرف.

من الشرفة، أسقط لها رغيفا، وظل يراقبها. أخذت الرغيف دون أن تنظر إلي أعلى، فأكلت نصفه وأتت كلاب سبعة مختلفة، فقسمت بينهم نصف الرغيف سبع لقيمات، ورمت لكل كلب لقمته. كم عاما مر دون أن ينتبه إلي الأرغفة التي بجوارها، أو إلي الكلاب السبعة التي تتردد عليها ثلاث مرات يوميا في ترتيب لا يختل؟

كان عليّ الدين خادم الملك منتظرا بجوار الحصان إلي أن تنتهي الأميرة من اللعب، وحين خلد الصبية والبنات إلي دورهم الطينية،

التفتت فلم تجده ولم تجد الحصان. لم تدر إلي متى ظلت تصرخ، لكنها وجدته كما كان منتظرا بين الأشجار، يتعجب:

ــ كيف جئت؟

ــ أين الحصان؟

ــ أي حصان؟

حدقت بغضب في وجهه مستغربة:

ــ البني ذو القوائم البيضاء!

ارتبك أكثر، وبانت الحيرة علي ملامحه وهو يترك الفأس من يده:

ــ ألست أروي؟

ــ وهل نسيت اسم أميرتك أيضا يا علي الدين؟

ــ السماح أيتها الأميرة.

ــ أريد العودة.

ــ إلي أين؟

ــ إلي القصر.

عاد بها، غير أنها لم تعد من حيث أتت. داخلتها الرهبة فأوقفته في الطريق وأشارت:

ــ ما هذه الأكواخ؟

ــ دورنا!

ــ وأين الأحصنة؟

دمعت عيناه، وبلغت حيرته مداها، فقال متوسلا ألا تزعل من أجل خاطر علي محمود:

ــ ما حكاية الأحصنة، وما حكاية علي الدين هذه؟

فقالت بزهق:

ــ بل ما حكاية علي محمود هذه؟

لم تعرف لعلي محمود حكاية، فقد غافلها ومات. دهمـــه قطـــار علي كوبري الرياح التوفيقي. كأنه قصد أن يظل غامضا، حتى على هؤلاء العجائز الذين يروون كأنما يقـــرأون مـــن كتـــاب مفتـــوح، ويحكون بسهولة منقطعة النظير، ويردون كل شـــيء إلـــي أصـــله، فالسوايدة الذين هم في غاية الجاه بـــدأوا ببيـــع النداغـــة وســـرحوا بالملبن، أما الفنجرية، فمكروه الدار ساكنها، جـــاءوا مـــن شـــربين يعصبون أعينهم بالمناديل، ويسرحون بالدفوف أمام الأبـــواب وقـــد علقوا الأخراج بأكتافهم وأنشدوا المدائح النبوية، ثم عملوا مسحراتية وطبالين ثم أصبحوا ملاكا لهذه الأبراج علي الكورنيش وعند النفـــق وأمام محطة القطار. والملايجة في الأصل ساسة للخيول، والبوهيـــة بدأوا عبيدا عند محمد أفندي علوان، ثم أخذهم ابنه مصطفى أنفـــارا بعد ذلك في مصنع الطوب، ولا يمكن لذريتهما الكبيـــرة أن تحـــول دون نسيان أصولهما المنتهية إلي مليج منوفية. حتى الهراوي الـــذي ورَّث ذريته ــ إلي جوار الحلاقـــة ــ العيـــون الخـــضر والبـــشرة البيضاء واللت والعجن في الكلام عمال علي بطال، واقتناء النـــساء، لم يختلفوا علي أن بذرته نبتت في كفر محمود منوفية. أما الدهاشنة فالعدد في الليمون، والعكايشة فعديمو الأصل كخبز القرافة كل واحد من شكل، والحبايشة فتنابلة لا ينجزون شيئا، وإلي أن تتكحل العورة يكون السوق قد خرب.

عند علي محمود، والكلام يتجمد علي ألسنة العجـــائز، يـــصيبهم البكم. لا أحد ينفي ولا أحد يؤكد. كأنه لم يكن. علي محمود هكـــذا، لا جد ولا أعمام ولا أخوة. ما إن تقترب من الموضوع، ولـــو دون

قصد، حتى تمط الأم بوزها وتمتعض، ويتساءل خالها عن الـداعي لنبش الماضي.

أحضرت الكتب، وقرأت بنهم، شغوفة بحكايات الماضـي، عـن الهزة التي أصابت العائلات في البلاد المصرية، إبان حفـر القنـاة، فتبدلت مواطنها، وتفرق الأخوة وتقطعت بينهم السبل، هروبـا مـن السخرة، والموت الحتمي وبطش السلطة. حتى الحكايات الشعبية لـم تغفل تقصيها وتأويلها وفهمها.

لكنها كانت ترتطم دائما بجدار مصمت.

ـ لسه حد بيقراها؟

كأنه لا يكلمه. لم ينظر نحوه. يرتب الجرائد. يخرج الكتب مـن الكشك ويرصها علي فرشة الكتب. يناول الزبائن جرائدهم باليد التي بها النقود الورقية، ويعطيهم الباقي من علبة نعنـاع فارغـة عملـة معدنية دون مراجعة كأنما يوزع صدقة. تتنقل عيناه بشكل خـاطف بين أذرع متداخلة بنقود من فئات مختلفة، خلفها وجـوه متزاحمـة ومتعجلة: مسائي يا حسني! أخبار! جمهورية! مسا.. لـسه! وفـد.. خلص!

كانت ذراع راشد ممدودة بالنقود ما تزال، وهو ينطق في الزحام بضجر اسم جريدته، حتى خيل إليـه مـن نظـرة حـسني الحـادة والمركزة أنه يقصده. كانت نظرات الـواقفين ذوي الأذرع الممتـدة تشي أيضا بأن النبرة الخاطفة والمتسائلة والمستنكرة موجهة إليـه، فهل كان في طلبه لهذه الجريدة ما يدعو للغرابة؟

ـ لسه حد بيقراها يا أستاذ؟

نطقها حسني هذه المرة وهو يضغط حروفها بأسـنانه، متعجبا بيده التي بها النقود الورقية والأخرى التي بها جريـدة يوميـة فـي اتجاهها إلي ذراع ممتدة، حتى التفت المتزاحمون نحوه باسـتغراب، فهبطت ذراعه وخرج تلقائيا من الزحام. هل غاب طويلا؟ أم أغلقت الجريدة؟

خذله الرد المفاجئ، كمن يسأل عن صديق أوحشه، فيفاجأ بأنـه مات منذ فترة طويلة، وأنه وحده الذي لا يعلم. خاف أن يسأل عـن أبيه أو عن زوجته أروي، فيصطدم بشيء مفاجئ. انتابـه الحـزن لغياب جريدته التي أدخلته ذات يوم عوالم ساحرة، فعرف أمل دنقل وتوقف طويلا أمام "لا تصالح، وأقوال جديدة عن حرب البـسوس" وأحب من خلالها نجيب سـرور، وسـعد الله ونـوس، وميخائيـل رومان، ونجم والشيخ إمام ومحمد منير ومحمد حمام، وسـمع لأول مرة عن لومومبا وجيفارا، واسبارتكوس. من خلالها كانت البداية. كان مغمضا ففتحت عينيه علي مسرح الغرفة، ثم مـسرح الـسلام، ومتحف الفن الحديث. نبهته مبكرا إلي أنه إزاء واقـع بكـر لكنـه متخلف وراكد، يرتع فيه كطحلب مجاذيب وسحرة. بعد ذلك ذهـب وحده، وبمحض إرادته، وطلب أن ينضم إليهم، ليحرك هذا السكون، ويهيل التراب بقسوة على كل ما يعوق أو يناقض طموحه الجـارف نحو التقدم، ونحو الغد المشرق، ونحو الكرامة والعزة. كان شـغوفا بحماسهم، وانتشارهم بين العمال والطلاب، وتمردهم الـدائم علـى الواقع، وكراهيتهم للعدو، غير أنه تساءل عن بذورهم: لماذا لم تنبت كما كان يتوقع في هذه التربة؟ وهل كان المعتقـد الـديني الراسـخ والمتغلغل وحده الذي حال دون نمو هذه النبتـة وترعرعهـا؟ أيـن

يكمن الخطأ؟ في البذرة أم في التربـــة أم فـــيمن قـــاموا بزراعتهـــا ورعايتها؟

كانت الضجة قد خفتت عن حسني الذي ناداه، وقال له: إنها لـــم تعد تجيء منذ فترة، لأن أحدا لم يعد يطلبها. هز رأسه فـــي أســـف وأخذ يقلب في الجرائد الموجودة، يومية وأسبوعية وحزبية ومستقلة، يقرأ شعاراتها. تجول في المجلات الفنية والثقافيـــة. تفقـــد عنـــاوين الكتب الكثيرة المفروشة متعجبا من انتشار هذه العنـــاوين الغريبـــة علي هذا النحو. أتكون العودة إلي النقيض بذلك العنف؟ كـــان علـــي حق إذن حين صارح رؤساءه في التنظيم، بانزعاجه مـــن نظـــرتهم إلي الدين، وطالبهم بدافع المحبة والغيرة أن يبحثـــوا عـــن منطقـــة للالتقاء، وأن يحوروا فكرهم ليتواءم وطبيعة مجتمع ريفـــي بـــسيط يعرفه، يؤمن أكثر بالآخرة، ويفضل ــ إن كان ثمة خسارة لابد منها ــ أن تكون في الدنيا. ريفيون بهذا الشكل كانوا جديرين فـــي رأيـــه بأن يتحور أي مذهب ليناسبهم. تساءل:

ــ أيهما أكثر مرونة، تطويع النظرية أم تطويع المجتمع؟

اقتنع أكثر أنهم يراهنون علي المجتمعات العمالية حين رآهم أقل مرونة تجاه التجمعات الريفية، وحين تأكد له أن التجربة التي ينقلون عنها لم تعتمد في الأصل علي الفلاحين كما اعتمدت علي العمـــال، فتيقن أنه لن يحدث التقاء، بل حدث التنافر، فلم يكـــن لـــدي أهلـــه الريفيين ما يضطرهم لأن يقبلوا المذهب هكذا.

اختار جريدة يومية. قرأ تاريخ اليوم قبل أن يتـــصفح أوراقهـــا. استغرب حين طالعته من بين الصفحات أسماء ذات تاريخ نـــضالي وفكري بارز، كانت مقالاتهم وجبة أساسية في جريدتـــه المفـــضلة. عاد إلي الصفحة الأولي ليتأكد من اسم الجريدة والتاريخ، ثـــم فـــر

الصفحات الداخلية، وتوقف طويلا أمام أسماء أولئك الـذين كـانوا يغالون في التشدد، ويعتبرون أن المذهب مطروح، يؤخـذ كلـه أو يترك كله، ولا مجال من ثَمَّ لمذهب توفيقي يرضي أطفـال اليـسار وضعفاءهم.

ظل واقفا بين أقرانه في التنظيم، وأولئك الـريفيين البـسطاء. لا إلي هؤلاء ولا إلي هؤلاء. لم يتقبل أفكارهم الجامحـة كاملـة، وإن تزعزع يقينه، وتسرب الشك إليه مـن المـسلمات. فـي منتـصف المسافة تماما ــ تلك المنطقة الوهمية التي كان يحاول الثبات عليهـا دون انزلاق ــ نجا من القتل بأعجوبة، وأفاق علي فقرتين محطمتين وذاكرة مشوشة، ليشهد في الجريدة اليومية التي في يده، والتـي لـم تتزحزح قيد أنملة باتجاه مذهبهم، كيف ركب المتشددون باقتدار آخر موجة قبل أن يغرقوا.

لعمارة أندراوز شهرة ميدان، لا يخطئها أحـد فـي المدينـة أو القرى المحيطة. من عندها يمكن الوصول لأي منطقة في المدينـة، فليس علي المرء سوى أن يقف بجوارها، ثم يحـدد الاتجـاه الـذي سيسلكه كما وصف له، كي يصل إلي هدفه مهما بعد، طالما كانـت عمارة أندراوز نقطة الانطلاق. يأتيها مرضي المدينـة بالحنـاطير، والقرويون علي الدواب. يرافقهم مرشدون ومتطوعون كـانوا فـي الأصل مرضى ثم خفوا علي يديه، يتطلعون بوجوههم إلـي الأدوار العليا، يتفحصون لافتة غير مرئية لأندراوز حال لونها، علي شرفة متربة لم تفتح قط، قبل أن يصعدوا ثلاثة سلالم في الـذاكرة حتـى العيادة بالدور الثالث، فيما لا ينتبهون للافتته الكبيـرة علـي نفـس الشرفة، كأنها لافتة وهمية، بل يطلقون عليها عمارة أندراوز. كبير

أطباء المستشفي الأميري. طبيب المركز. ترخيص رقم ٦. حكومة الملك المعظم. إذا كانت الشمس وعوامل التعرية محت اللافتة، فمن أين قرأ هذه الديباجة؟ أيكون هو الدكتور الذي في عيادة أندراوز ويتحقق بكامله الحلم الذي قصه علي أبيه منذ ثلاث وعشرين سنة، وينجح في العثور علي ورثة الورثة، ليوقعوا له العقد ويضيفوا إليها حجرة ثالثة كان أندراوز يستريح فيها ويتناول غداءه، فيخصصها للولادة.

في طريقه إلي ورثة أندراوز بالضاهر، مسترشدا بفكرة حسين عبد الوهاب الدولة ومعلوماته عن أندراوز التي كان يأخذها منه في طريقه بالحنطور من المحطة حتى العيادة، وانتظاره بالحنطور حتى ينزل عواد التمرجي ليحمل الحقيبة، كان يزيل العنكبوت والغبار عن العمارة التي يرجع طرازها إلي أواخر القرن التاسع عشر، ويدهن في ذهنه حوائطها، ويعيد أيقوناتها وأسودها البارزة إلي الواجهة، ويستكمل في رأسه حلياتها الجميلة ومقرنصاتها المتهدمة، فتبدو شاهقة وقديمة. رافقه حسين الدولة، منتهزا الفرصة فيما لو نجحت الصفقة أن يدفع إليه بابنته نازك لتعمل معه ممرضة. في مدخل كوبري الرياح التوفيقي، أطل حسين بجسمه من الزجاج المفتوح وسب أبا أم الدرويش ابن القحبة حين زنق سيارة الدكتور، واحتك بجانبها الأمامي دون أن يتوقف أو يلتفت، وهو يتطوح والدف في يده والعرق ينثال من جسمه. في إشارة مرور غمرة، وبينما كان يعدد مزايا ابنته نازك الشاطرة والتي تقرأ وتكتب، صرخ حسين فجأة حين رأى الدرويش مارقا بالكارو والولد باللجام والدف في يده. كان الدرويش غارقا في عرقه كأنه صاعد من نهر.

صرخ حسين الدولة ثم سكت تماما، وظل مبحلقا بعينيه يخبط كفا بكف ولا ينطق كأنه أخرس.

كانت العمارة من أربعة طوابق، أربعة أمتار ونصف للطابق، تطل بشبابيك مستطيلة وشرفات صغيرة علي مركز الشرطة وعمر أفندي من جهة، وعلي الإعدادية القديمة من جهة ثانية، وعلي النيل ومحلج العطار من الجهة الثالثة. هنا كان أندراوز يناوش الفلاحين حين يراهم ينتعلون البلغ والكنادر وقد توارت قليلا الشقوق من أقدامهم، فيذكرهم بأيام الكوليرا وأيام البودرة:

ـ إوعى يا فلاح منك له عشان ما نضفتوا شوية ولبستوا ساعات وخلعتوا الطواقي الليف تكونوا نسيتوا البودرة والبخاخة؟

يحبون الحكيم أندراوز أبا عن جد. يخرجون من عنده أصحاء كأن لم يكن بهم مرض. ينزلون من عنده وهم يرددون مناوشاته ووصاياه، كأنهم تركوا المرض عند أندراوز، الذي أراد أن يرحمهم من البلهارسيا، فوزع عليهم أحذية برقاب طويلة يستخدمونها في الري، غير أنه ظل يصرخ في شرفته حين رآهم يرتدونها في مشاويرهم إلي المدينة وقد قصوا رقابها، بينما ظلوا ينزلون حقولهم كما اعتادوا حفاة، إلي أن مات معترفا بأن الذي هزمه لم يكن سوى هذه القرى المتناثرة كرُبَي صغيرة بين المزارع الفسيحة بلونها المترب ومآذنها الصغيرة، لا تربطها غير مدقات عليها دواب بطيئة وسائرون مطمئنون. تلك القرى التي كانت تلوح له داكنة من شرفته، كأنها نبتت هي الأخرى من الأرض، قبل أن تضعف عيناه، وقبل أن تحجبها عنه العمارات العالية، فلم يعد لفتح الشرفة معنى.

وقع العقد مع ورثة الورثة. أبناء أخت أندراوز وإخوته الثلاثة. عرف حسينُ أصغرَهم، إذ كان أحد الذين أنزلوا أندراوز في مثواه

الأخير، في ترب المدينة. تذكره حسين، وقال الرجل: إنهـا كانـت المرة الأولي والأخيرة التي ذهب فيها إلي الأرياف، والدنيا تغيـرت لا شك. وليس من المعلومات التي استقاها حسين أو أبـوه أو جـده حسين الدولة، إنما من أرمِيا ابن أخته علما ــ حسين والطبيب ــ أن خاله أندراوز لم يتزوج، وأنه ظل يبيت لخمسين عاما مع أمه، ولما ماتت ظل وحده، تزوره أخته في هذا المنزل الأثري في الـضاهر، والذي آل بالضرورة إلي أخته وأولادها. كانوا لا يعلمون شيئا عـن أندراوز، وكانوا عمليين بما يكفي لأن يأخذوا مقـدم الإيجـار، وأن يتفقوا جميعا علي أن يصلهم الإيجار شهريا، وحين عـرض علـيهم فكرة الحجرة المغلقة، لم يكن لديهم علم، فأضافوها إلي العقد في بنـد خاص ورفعوا الإيجار.

أضاءت نازك العيادة، فبدت العمارة كما رآها تماما فـي الحلـم. حتى الحجرة المغلقة والتي أمام سطوة أندراوز أجل فتحها أكثر مـن مرة. كان يخيل إليه أنه سيجده راقدا بالداخل ممددا، ينظر إليه حالما يفتح الباب، ليسأله بحسم إن كانت لديه القدرة أن يفعـل فـي هـذا المكان لخمسين عاما أخرى مثلما فعل، وراوده هاجس بأنها حجـرة تسكنها الأشباح بعد أن رفض حسين عبد الوهاب أن يفـتح حجـرة مغلقة لم يدخلها أحد سوى أندراوز، حتى عـواد التمرجـي. فـتح الحجرة فرآها كما في الحلم، سرير مرتب كأنه بانتظـار أنـدراوز ليرقد فيه، أو كأنه نهض لتوه منه، بجواره مكتـب صـغير عليـه مصباح بقاعدة وكتب ومراجع مرتبة بعناية ونظارة للقراءة ومقلمة، وفي الجانب الآخر مائدة صغيرة بكرسي واحـد وطبقـان وسـكين وشوكة وملعقة وفوطة، تحتها سجلات مرصوصة لمرضـاه، ولـم يكن علي الجدران سوى مشجب بدون ملابس.

لم تكن نازك حريصة وهي تنفض الغبار عن الشبابيك، فتقـــافز صدرها المثقل إلي أعلي وإلي أسفل خلف ثوبها القديم دون أن تعي. كان في حركته البندولية حين تنحني أو تشب علي أصابعها وترمي بجسدها علي الشباك لتطول المناطق العالية، يلح في تذكيره بـــصدر عائشة. تملكه القلق، فخرج إلي بسطة السلم وهو يأمرها بأن تـــنفض العيادة بعد ذلك قبل مجيئه، وينفض الغبار عن أنفه كأنـــه يختنـــق. فتحت الشباك فتدفق الهواء البحـــري. شـــبابيك للتهويـــة وأخـــري للإضاءة، تفوق لمبات الكهرباء البائسة بأســـلاكها البـــارزة خـــارج الحائط وبقع الجبس المبرقشة. وكما لم تكن العيـــادة بحاجـــة إلـــي إضاءة حين تفتح الشبابيك، فإنه لم تكن هناك حاجة أيضا إلي لافتـــة لن يقرأها الناس رغم كبرها علي الشرفة فيما يقرأون لافتة أندراوز التي محيت. فقد فتحت عيادة أندراوز مرة أخرى، ليس مهمـــا اســـم من الذي فتحها، وكما أطلقوا علي العمارة كلها عمـــارة أنـــدراوز، ظلوا لسبع سنوات يقولون عنه: الدكتور الذي في عيـــادة أنـــدراوز، ولسبع سنوات ظلت نازك حسين تجلس في الصالة الواســـعة خلـــف المكتب الصغيرـــ بصدرها الذي لا يذكره بعائشة إلا عندما تـــنفض الغبار ـــ تستقبل المريضات وتدخلهن إليه في حجرة الكشف.

قبل نهاية المنحدر، أنهك الحصان، وبرك كما تبرك الجمال.

لم تتصور أن تجري الأمور بهذه السرعة، فينزل الغريب عـــن حصانه، وتنهرها زوجة خالها، فتبتعد لتراقب الغريب وهو يهمـــس في أذن خالها متوددا، ويرد خالها بهذه السرعة:

ـــ نجهزها ونوصلها لحد عندك.

كانت تتطلع بحب وسط بنات خالها الخمس إلي حصان الغريب البني الواقف وحده أمام الفناء، وحين وضع الفنجان فارغا وشدد علي خالها في ود:

ــ طلباتك.

فكرر خالها وهو يتنهد كمن ألقي حملا ثقيلا عن كاهله:

ــ لا شيء .. ألبِّسها وأوصِّلها لحد عندك.

فاتنتر الحصان وقال الغريب:

ــ نريدها كما هي.

فضحك خالها مقدرا وقال:

ــ إذن قومي مع عمك يا أروى.

كان الحصان يعبث بفمه في الحشائش ويهز أذنيه حين قالت بفرح:

ــ هل آن الأوان؟

ــ آن.

امتطت خلفه صهوة الحصان، فانفرد الطريق منحدرا وملتويا وسط مرتفعات من أشجار برتقال وليمون ونارنج وسرو، ولاح القصر في آخر الأفق، بسوره الضخم العتيق، بأبراجه العشرة وأبوابه السبعة. سار الحصان ولم يغادر الوقت الضحي، والقصر يقترب ويختفي مع التواءات الطريق. رأت بوابة أروي سدت بالطوب منذ خرجت منها فلم يجتازها أحد بعدها. باب كبير أعلاه برجان وسارية عليها ــ ما تزال ــ التفاحات الذهبية الثلاث تخطف الأبصار كلما سطعت عليها شمس الضحى. خلف السور يطل القصر مشرقا ومنيرا، بعقوده وسقوفه وأعمدته الرخامية وأفنيته وقبابه الفخمة. نظرت خلفها فرأت الطرق المتدرجة بين الأشجار،

وبدا أنهما في قمة الربوة، حين رأت النهر صغيرا وبعيدا ورأت الدرجات الحجرية الثلاثمائة وخمسة وستين تنزل إليه حيث الحمامات الملكية بأربعة عقود متكاملة في صفين، يظللها سقف مقبي ذو ثلاث بوائك، تتخلله كوات للنور، حيث يدفع النهر الصغير ماءه أسفل قنطرة حجرية ذات عقدين صافيا إلي الحمامات التي تحتها أسراب للتصفية في مجري آخر. بكت فقال الغريب: لماذا تبكين؟ قالت كانت هنا مملكة وثمة ملك وعرش وأميرة، وكان يقيم بين هذه الجدران سلاطين ورجال يوجهون مصائر رعية، ومن أحد هذه الأبواب خرجْتُ يوما ولم أعد.

بُعَيد باب أروي، وقبل نهاية المنحدر أنهك الحصان، وبرك كما تبرك الجمال. فقالت: لم نصل بعد!. قال الغريب إننا هنا بشكل مؤقت. حدقت في وجهه كثيرا فضحك، وقال: هل عرفتني؟ رن صوته القديم في أذنها، فصرخت في فرح: عبد المجيد الصعلوك مضحك الملوك! فقال متنهدا: أخيرا! استريحي قليلا أيتها الأميرة أروي. سألته عن عليٍّ الدين فقال: خادم الملك؟ فقبلته وقالت: نعم! فقال: الله يرحم الجميع! كانت تعرف أن الحصان البني ذي القوائم البيضاء سيعرف طريقه وحده نحو بهو الريحان وسيقف علي بركة الماء الرائق الأخضر التي تتوسطه. تظللها أشجار الريحان، وسيمرق إلي بهو البركة، ثم إلي بقية الأجنحة الملكية حيث كانت تلهو أمام بهو السفراء، حيث يعقد مجلس العرش، وسيدخل ساحة السرو وقاعة الأختين اللتين بهما رخامتان أرضيتان متماثلتان، ومتساويتان وفريدتان في ضخامة الحجم، وسيدخل الحصان الجميل فناء الأسود بأعمدته الرخامية الرشيقة المائة وأربعة وعشرين التي تحمل أربع مشرفيات ، ذات عقود بأربع قباب متقابلة ومتماثلة

الصنع، وستتركه لتلهو في النافورة التي بوسط الفناء يحمل حوضها المرمري الضخم اثنا عشر أسدا من رخام أبيض في دائرة، وتجوس داخل الأبهاء الملوكية الفخمة، وتقرأ في أركانها سورة الملك منقوشة بكاملها.

قال : نعم ..سيحدث كل هذا.. لكن بعد أن يستريح الحصان.

برك الحصان كجمل أمام دار واسعة، خرج من فنائها فتى تسبقه رائحة البرتقال، استقبلها بانحناءة مؤدبة، وقبل يدها وقال بخجل شديد:

ـ مرحبا بالملكة أروي.

وتقدمها إلي الداخل في بهجة. أفزعها أن تري فقرتين محطمتين من ظهره وآثار الدماء تنزف من إحدى وسبعين فتحة. صرخت منبهرة: أنت لم تمت إذن؟ فالتفت مبتسما وهز رأسه:

ـ مرحبا بالملكة أروى.

توقفت أمام باب الفناء، خيرته بين أن يخبرها باسمه، أو لا تدخل. قال: وهل يهم الاسم في هذه الأوقات؟ قالت: نعم. قال بخجل: راشد عبد المجيد. قالت: متى عدت؟ قال: حالا. قالت: هل التأمت جراحك؟ فقال إن جراح جسده التأمت، لكن جروح روحه لم تندمل بعد. قالت: خبرني أيها العائد عن الموت. قال وهو ينظر في الأرض دون أن يرفع بصره: لا يخبر عن الموت بحق من نجا، إنما يخبر عنه بحق الموتى أنفسهم. كان بالفناء صور لأبي زيد وسيوف متنوعة وقلاع وحصون قديمة ومراكب في وسط أمواج عاتية وعلي البوابة من الداخل عبارة: ملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب.

إلي أن يستريح الحصان، ظلت أروي مع عبد المجيد الصعلوك مضحك الملوك. تعد الطعام وتملأ الجوزة بالماء وتجهز الحجر، وتنظف الفناء وحجرة عبد المجيد وباقي البيت بسرعة، ثم تعنى باقي الوقت بالحصان المتعب. كان راشد يجيء ويغيب دون موعد، وصار غيابه أكثر من حضوره، وكانت كلما امتطت الحصان، تفاجأ به خلفها، يحيط صدرها بيديه، ويضغط ليمنعها من السقوط، حتى أنها تشعر من شدة الضغط بمواضع الواحد والسبعين طلقة، فتقول: متى خرجت؟ فلا يرد. تبكي وتذهب إلي عبد المجيد وتسأله: أين راشد؟ فلا يبدو أنه يسمعها. تبكي فيربت كتفها، يلاعبها ويناوشها لكنها لا تضحك. تعيد السؤال، فيمد كفه ويطلب أن تشمه، ويسألها دون أن ينتظر إجابة إن كانت ليلة أمس ليلة خمسة عشرة؟ فقد قابله ابن عمه حسن أثناء عودته من عند خالها متأخرا ليلة أمس، وأمام جزيرة علما وسط النهر والمزروعة بأشجار الأرو والفاكهة انتابه الخوف الشديد وكاد يجري هلعا حين سمع المعدية تشق الماء في الظلام، ولم يثبت إلا بعد أن سمع صوت قرطاس ابن عمه مناديا: إيه اللي أخرك عند أبو النسب كده؟

لم تؤنسه في هذه الليلة التي كالكحل سوى كلمات قرطاس وصوته الأجش المتدفق، يسأله عن راشد، وعن العروسة والأرض. لم يمتعض سوى من خشونة كف قرطاس الزائدة حين اعتصر كفه بأصابعه الخشنة التي تتلوى كأنها تستعد أن تسلمه شيئا، وحين آلمته الخشونة الزائدة سحبها، لكن الشيء اللزج كان قد استقر في وسط كفه، نتر كفه في الظلام عدة مرات فابتعد قرطاس وهو يقهقه ويضرط في الظلام، مخلفا في كف عبد المجيد اليمنى تلك الرائحة القذرة التي لن تزول بالغسيل وستظل في كفه حتى يموت. قالت:

أين راشد؟ نظر إلي كفه مرة أخرى بقرف وقال: إن ابن القحبة شخ في كفه انتقاما مما حدث له ليلة العيد الكبير، وكان أصدقاؤه قد أنبوه لأنه لا يصلي، وكان يتهرب منهم في كل مــرة ويــراوغ، وحــين ضيقوا عليه الخناق صرح أخيرا بأنه ليس أقل من الحاج احــسن أو محمد الشربيني أو محمود أبو غز، فهو يمتلك ســتة قــراريط فــي طرح النهر، ومثلهم لديه ولد وحيد، فلماذا هذه التفرقــة؟ وأقــسم ألا يدخل الجامع حتى يعطيه ربه بقرة بلبنها ومــشنة عــيش ممتلئــة، وحتى لا يفاتحوه مرة أخرى فإنه حدد هذه المهلة بالعيد الكبير. فــي منتصف ليلة العيد، استيقظ على خوار بقرة في الفناء وتعثــر فــي مشنة العيش، فخرج من تلقاء نفسه إلي جامع البحــر، يزعــق فــي الظلام ليوقظ الناس قائلا: إن كل من لم يصل يكون كلبا وابن كلب. علي باب جامع البحر المغلق جلس في انتظار الفجر، ومــن وســط الظلام جاءه النداء:

ــ يا أبا راشد.. اسجد!

فقال: ومن أنت؟ قال: ألا تعرفني؟ أنا من أعطيتك البقرة ومشنة العيش. قال: وما يدريني؟ قال: اطلب ما تشاء أجبك، ففكر وقال إنه لن يسجد له حتى ينفذ ما يطلبه منه، فقال: لك ما تريد، فخرج إلــي الخلاء وعاد بقطعة طين طرية، وقال اسجد لهذا الشيء أولا فأسجد لك بعد ذلك، وسجد الصوت ثم طالبه بعد ذلك بالسجود تنفيــذا لمــا اتفقا عليه، فقال وهو يضحك ويصرخ ويزعق في الــشارع حتــى خرج الناس:

ــ سجدت لشختي وعايزني أسجد لك.. ها ها.. يا أخي دا بعدك.

ولما عاد، لم يجد البقرة، ولا المــشنة، فبــذر القــراريط الــستة بالمكرونة، متسائلا: لماذا يزرع البرسيم إذا لم يكن لديه بقرة؟

كان يعرف أنهم لن يتركوه هكذا يفوت بفعلته. يتوقع ملاعيبهم القذرة، فيحبطها حين يجاريهم متظاهرا بأنه يصدق أن الجنية المنتظرة بالجرة الممتلئة علي حافة الرياح أسفل الكوبري هي آمنة أم حبيش، وأنها تنتظر من يرفعها علي رأسها: إيدك يا خويا. فيقترب ويرفعها، وقبل أن تستقر الجرة علي رأسها يشعل عود الثقاب في وجهها، فتقفز في الرياح.

وحين طرق الحاج احسن بابه في منتصف الليل كما اتفقا ليشويا أكلة ذرة قال من تحت الغطاء: من؟

ــ الحاج احسن، ياالله يا سيدي اتأخرنا.

فقام، دس البلغة في قدمه، ونطر الشال علي رأسه وتوجها إلي الساحل، ففاجأهما الفيضان. بدا أن الحاج احسن كان قد عمل حسابه، فخاض في الماء حتى صدره دافعا أمامه طشت الصاج، يقطع الكيزان من العيدان المغمورة ويرميها فيه. لم يكن العجب في أن الحاج احسن يسبقه، أو يخوض في الماء كأنه يمشي في الناشف، وينزع قشر الكيزان، ويشعل النار بسرعة، إنما كان العجب حين ازدرد الحاج احسن وحده خمسة وعشرين كوزا من الذرة وهو جالس مربع الساقين. عادا يضحكان ثم دخل ولم يكد يغمض عينيه حتى بدأ النقر علي الباب، قال: من؟

ــ الحاج احسن ..ياالله يا سي عبْمجيد النهار طلع .. راحت علينا نومة..

انتبه إلي أنه ربما كان يحلم، أو أن الحاج احسن قد جُنَّ بالتأكيد، وخرج مكذبا نفسه: لعلني كنت أحلم. ذهب معه، ورأي تماما ما رآه، وظلا أمام الباب يضحكان، فلم ينم هذه الليلة مطلقا، وقال في نفسه إنه بالتأكيد لم يكن يحلم، وأنه في إحدى هاتين المرتين كان

العفريت الذي يأكل معه دون أن ينتبه إلي خشونة كفه أو قدمه التي تشبه حافر الماعز، وفي الأخرى كان الحاج احسن، وبينما كان يخمن أيهما الذي كان في المرة الأولي، ومن كان في الثانية، طُرق باب الفناء بلهفة. رد من أسفل الحرام: من؟ :

ــ الحاج احسن.. ياالله يا حبيبي .. علي اتفاقنا؟

ــ لحظة واحدة يا حاج.

وبدلا من أن يتلو في وجهه سورة الناس، خلع البلغة وعاصها خراء، وناول العفريت الواقف بالباب ست عشرة بلغة متتالية، فسقط الحاج احسن من المفاجأة وظل يصرخ حتى خرج الناس، وظل حتى مماته مخاصما عبد المجيد، ولم يصدق ما قاله أو يقبل له اعتذارا.

ضحكت حتى دمعت عيناها. لم يكن يضحك الملك غيره. طرد الملك المهرجين والبهلوانات ومروضي الوحوش والحواة ولاعبي الثلاث ورقات واحتفظ به. وكان وحده القادر على انتزاع الضحكة من أعماق الملك. مسحت عينيها وقالت: أين راشد؟ فأقسم أن عفاريت اليوم أولاد قحبة، كثيرا ما يعتلون الأسطح والشبابيك، يتسمعون الأخبار، ويقذفون بالطوب والحجارة في الشوارع وأفنية البيوت ليتسلوا بإثارة الرعب والفزع في قلوب بني آدم والعبث بهم والسخرية منهم. عفاريت أوسخ من الكلاب الضالة، يشعرون لكثرتهم بالملل، يتراهنون علي إيقاع الأذى بالإنسان، أو حمله علي سلوك معين، يخوفون الصبية والعائدين ليلا، يسكنون دورا معينة ويطردون أصحابها لتظل مهجورة ويوقعون بين الأصدقاء والأزواج. ستقولين: واشمعنى انت اللي العفاريت بتعاكسك؟ سؤال جميل في محله، فأنا لم أقل إنهم جاءوا بناء علي رغبتي، فبعد أن

استلموا راشد في البداية وركبوه، أصابوه بالأمراض، كـان يتـشنج ويبرطم ويتخشب جسده، وأوصلوه أن يمسك سكينا ليـذبحني، هـذا الولد الوديع الذي ظللنا نبيت معه في هذا الفناء، أنا والجيران، نقـرأ عليه القرآن، نكتفه ونضربه فلا نقدر عليه ونستغرب من أين يـأتي ولد في ثانية إعدادي بكل هذه العافية، ولم ينفع معهم شـيء حتـى شققت جلبابي للذيل في الظلام وصرخت فيهم:

ـ سيبوا الولد الغلبان ده لحاله. ده عيـل ميعـرفش حاجـة .. تعالولي أنا.. أنا قدامكم أهه .. أنا جتتي نجسه وشقيت طوقي للذيل.

ظل الناس يهدئونه وهو يشتم العفاريـت أولاد سـتين وسـخة ويهددهم إن لم يتركوا الولد لحاله، حتى أفاق الولد. أفاق تماما كـأن لم يكن به مرض، وكأنهم تركوه وتفرغوا له، فصار يعرف كيـف يعاملهم.

كان الحصان البني ذو القوائم البيضاء وحيدا أمام البـاب، وهـو يمسد شعرها علي حجره وهي تغالب النوم. بكت قبـل أن يواصـل الحكي كأنها تحلم:

ـ أريد أن أعود إلي القصر.

ـ بعد أن يستريح الحصان.

لم يتخيل قط أن الأفكار والنظريات يمكن أن تموت هكـذا مـرة واحدة، أو تهوي كما تسقط العمارات، فتتناثر محتوياتها وزخارفهـا علي قارعة الطريق، وتلقى علي الأرصفة ـ بلا قيمـة ـ مئـات الكتب والمجلات والنشرات دون أن يلتفت إليها أحد، وكان مجـرد

حيازة أحدها يكفل لمن يقتنيه التشريد والاعتقال. كان راشــد يكلــم نفسه في شارع المديرية كلما وخزه التساؤل المتهكم لبائع الجرائــد. كأنه كان نائما فلم يشعر متى صــارت هــذه الكتــب دواء منتهــي الصلاحية، وكيف أصبحت الأفكار التي يعتنقها تمائم سُــحِبَ منهــا السر، وكأن ما مر كله أصبح فجأة في ذمة التاريخ.

منذ انخرط في صفوف هذا التنظيم وهو يعلــم أنهــم مناضــلون واثقون، لا يخططون لكسب أرض جديدة، بقدر ما كانوا يقــاومون، يذودون عن مواقفهم. رغم تقهقرهم فإن صلابتهم في الدفاع هي مــا شدته إليهم، فتخلى بسرعة عن أفكاره الأولية الصبيانية، وتمرد على قهر الأسرة والتخلف وسطوة مشايخ الكتاب، ووجد ملاذه في الكتب، حيث كل شيء قابل للنقاش والفهم والتقييم، لكن الذي لــم يعرفــه ــ إلا الآن ــ أنهم كانوا في مرحلة الأفول، وأنه كــان يــسير دون أن يدرى عكس التاريخ، وأن بائع الجرائد كان أنفذ منه بصيرة وأكثــر منه قدرة علي قراءة المستقبل.

ــ لسه حد بيقراها؟

هل كان وحده الذي يصحو مبكرا ليشتري جريدته المفضلة قبــل أن تنفد أو تصادر من الأسواق؟ من غيرها كان يكــشف الأخبــار السرية والصفقات المشبوهة؟ ويفضح من يتعــدى علــي مــصالح الفقراء والطبقات الدنيا، ويثير الرأي العام ضد الاســتبداد والكبــت وتقييد الحريات، ويشير إلي التزييف المتعمد في وســائل الإعــلام، وفضح استفتاءات صورية وانتخابات هزيلــة، بمانــشيتات عنيفــة وجريئة، فهل كان مهما كم كانت توزع؟ مئات الــوطنيين فــصلوا واعتقلوا، فصار الاعتقال وساما يهون عليه سنوات الأذى والسجن. هل كانت هناك صحيفة أخرى تقول مثل ذلك؟ قل يا بائع الجرائد.

لم يرد حسنى، إنما فتح الجرائد متنهــدا بــشكل عــشوائي. أي صفحة تريد؟ لست في حاجة إلي البحث، فالمناضلون الذين اعتقلــوا ــ كما تقول ــ متناثرين علي كل الصفحات، وهذا كلامهم، بلا لون ولا طعم ولا رائحة. ركبوا الموجة في آخر لحظة، فعن لسان مــن تتكلم الآن؟

انخرس تماما، وقد رأى بأم رأسه المفكــرين الكبــار يزينــون الصفحات الأولى للجرائد الأخرى كزخارف عمارة منهارة. للغربال الجديد شدة. اليوم يضعونهم في الصفحة الأولي، وغدا يصير الأمــر عاديا فيدخلونهم إلي الصفحات الداخلية والأعمــدة المختبئــة. إنــه الاحتواء، أو قل الإغراء.

ــ ولا حتى هذا.. إنه ركوب الموجة في اللحظات الأخيرة قبــل الغرق.

ــ استسلام؟

ــ شيء كهذا.

بدا أنه لا يعرف الاتجاهات. ريشة في مهب الــريح. لا شــيء يملكه سوى التنقل بين المعتقل والمستــشفيات النفــسية، والفقرتــان المحطمتان إثر واحد وسبعين طلقة، ورفوف من الكتب تدوس مثلها الأقدام علي الأرصفة عن نظريات راحت ولن تعود كأمس الــدابر. بدا الجميع كأنهم يعرفون اتجاهاتهم، يسيرون بآليــة إلــي المــساجد والمدارس والأسواق والمصالح، حتى المتسكعون علــي الأرصــفة وشاطئ النيل والجالسون على المقاهي. وحده الذي يتخبط وهو يرى رموزه قد ارتموا في أحضان نظام لم يتزحزح قيد أنملة في اتجاه ما يعتقدون. أغلق حسنى الجرائد وخفف عنه:

ــ الزمن تغير، والشعارات تغيرت، اعذرهم فعن ماذا يـدافعون الآن؟

كان يسير صامتا في شارع المديرية، حزينـا مـن استـسلامهم المجاني الذي لم يكن يرى مبررا حقيقيا له، بينما كـان أمـامهم أن يموتوا جميعا وهم يدافعون عن شـعاراتهم ولا يظهـرون كفئـران مذعورة تهرع إلي الموجة الأخيرة. كأنه لا يريد أن يـرى، كـان يخبئ عينيه بيديه، فتسقط أوراق الجريدة اليومية غير المفضلة مـن بين أصابعه وهو يتواري عن مارة يحدقون فيـه بدهـشة، متغلبـا كمحارب مهزوم علي عاهة فقرتيه قبل أن يدخل عمارة أندراوز.

ملك الموت ــ لا شك ــ الذي كان يرابط أمام باب حجرة عبـد المجيد لثلاث ليال متصلة، حين تكور لـصق الحـائط فزعـا فـي سريره، يحدق في فتحة الباب. لم تخفت خلال هذه المـدة أصـوات البط والطيور علي الأسطح، وانتابت الأبقار العائدة العـصبية كلمـا مرت أمام الباب فتجفل بقوائمها في فزع كأن أحـدا يـسوقها مـن الخلف، وامتنعت العجول الرضيعة والحملان من المرور، وانتظمت الكلاب المتوجسة تعوي في طوق حول البيت، ثم انتقل العواء إلـي طوق أوسع كأنه الصدى، فشمل الحي كله من السكة الحديـد إلـي النيل كأنما لذئاب، وبدا أن دار عبد المجيـد ذات البوابـة الخـشبية الكبيرة والفناء قد صارت مركزا لدوائر الصخب، بل غرفته تحديدا، حيث يتكور ببصر لا يتحول عن فتحة الباب، حيث كان ملك الموت ــ لا شك ــ ينتظر إتمام مهمته. لم تتوقف عـن الترجيـع دوائـر الصخب المتداخلة إلا بعـد أن انفجـرت صـرخة أروى الملتاعـة

متبوعة بصوت ثيابها تتمزق، وخروج الطبيب الــذي فــي عيــادة أندراوز بحقيبته التي أكمل غلقها في الشارع.

لم يكن غريبا علي مدينة كانت في الأصل قرية، تعــشق التفكــه والسخرية، ألاَّ تتذكر من عبد المجيد سوى موتتــه الغريبــة تلــك، وزراعته قراريطه الستة بالمكرونة وإحاطة حدودها بالشيكولاتة كل عام، ومقاسمته زجاجة الكينا مع حمار فرّ من قسوة صــاحبه، دون أن تشير ـــ ولو من طرف خفي ـــ إلي أمنيته القديمة جــدا بأكــل المكرونة ما بقي من حياته والتحلية بالشيكولاتة، أو تُلَمِّح إلي يمــين الطلاق الذي رماه علي المقهى بأن يشرب مناصفة زجاجة الكينا مع أول من يمر من هذا الطريق، حتى وإن كانت أم راشد ميتة من أحد عشر عاما.

لم يكن غريبا عليهم تذكر ذلك رغم ندرة هذه النوبات التي تأتيــه من آن لآخر، ثم تتركه طوال العام سليما ومبتهجــا، ينــاوش فــي الرائح والآتى من أجل سيجارة أو كــوب شــاي. يجلــسه النــاس ويفتحون له الأبواب حتى يبدأ حكاياته الملتفة والمتشابكة، بدأب كأنه يفك بكرة خيط بنظام ورويَّة، عن عفاريت هذه الأيام أولاد القحبــة، التي لا تجد سبيلا لتضييع وقتها والتسلية إلا بالاستهزاء والــسخرية من بني آدم بعمل المقالب والضراط بعد ذلك وملء الليل بالــضحك المريب، ولأن نجمه خفيف فإنهم يختارونه، يعملون فيه المقلب دون أن يكتشف أنهم عفاريت إلا بعد أن يــسمعهم يبرطعــون كحميــر مقمصة، يضرطون ويضحكون بصوت عــال. يــروي الحكايــات فيذكرها الناس وينساها هو بمجرد انتهائه منها، تلك الحكايات التــي غالبا ما تتزامن نهاياتها مع نهايات كــوب الــشاي أو العــصير، أو الوجبة التي يأكلها. عندها يقذف ـــ وهو يتألم أو يدمع ـــ الطبــق أو

الكوب الفارغ في الحائط بقسوة ليتحطم ثم يمشي بعد ذلـــك وديعـــا وهادئا في سلام شديد كأن شيئا لم يحدث، فيحدق الناس بذهول فـــي عبد المجيد، ويلتمسون له العذر منذ أقامت العفاريت في جسد ولـــده راشد، وأصابته بالتشنجات، لا تتركه إلا حين يسقط علـــي الأرض كجذع شجرة، يرغو فمه. سنوات والعفاريت تعبث بالولد دون رادع حتى أنه لم يبق أمامه إلا أن يقف على رأس ابنه المتـــشنج، ويـــشق طوقه للذيل ويزعق لاطما خديه ولاعنا أولئك العفاريـــت، عارضـــا عليهم ــ لو كانوا عفاريت محترمين ــ ألاَّ يستضعفوا هذا الـــصبي الغلبان الوحداني، ويدخلوا جسده هو. هدّأهُ النـــاس الـــذين تجمعـــوا حوله، وطلبوا منه أن يوحد الله، فتهدج صوته وهو يشير إلي الـــدم الذي انبثق من جانب فم ضناه الحيلة ذي العينين الثابتتين:

ــ يرضي مين ده؟

كأنما خافت منه العفاريت أو قبلت العرض. تركت جسد راشـــد ليخف تماما كأن لم يكن به مرض ودخلت جسده هو فلبسته، وظـــل عبد المجيد يكلمهم وحده، ويشرب معهم الشاي، ويرد عليهم التحية، ويضع لهم الأكل بجوار الحائط، ويعزم أحيانـــا علـــيهم بالـــسجائر، وكانوا يخبرونه بما يعرفون. رآهم بوضوح بعد ذلك، فأخبروه بـــأن راشد سيدخل كلية الاقتصاد، وأنه سيصير مشهورا. كان سعيدا بأنه يراهم الآن علي حقيقتهم أكثر من ذي قبل. حدَّث راشد بذلك أكثـــر من مرة فلم يلق بالا لذلك، إلا بعد أن كثرت وشوشته له بـــأن ثمـــة كنزا مخبأ له، دون أن يدرك أنه في كل مرة كان يشير إلـــي مكـــان مختلف، يحدده ويخرج بالفأس ويحفر وحين لا يجد شيئا يصرخ:

ــ آه يا أولاد الأبالسة!

وحدها من بين الحكايات التي كان يرويها عبد المجيد، ظلت حكاية الكنز ثابتة تماما كلما حكاها. لا يحيد عنها كما في الحكايات السابقة. تبدو ملامح الصدق والذهول في آن مسيطرة عليه، كأنه يروي من واقع رؤية حقيقية، غير أن التباين بين الروايات المختلفة لا يحدث سوى عند تحديد مكان الكنز، فيعود لتعليقه المتكرر إذا نبهه أحد:

ــ ما هم أولاد الأبالسة نقلوه.

أمام لجنة امتحان الماجستير قال إن تسع قرب من الدم الطازج، وعمليتين إحداهما لربط شرياني الرحم، والثانية لاستئصاله لم تكن كافية، وإن نهلة عبد الواحد ظلت تنزف من أسفل، ومن جرح البطن دما سائلا كالماء.

ــ تشخيصك المبدئي والنهائي؟

ــ دي آي سي. سيولة الدم الناتجة عن إجهاض مركون تجاوز الشهرين.

في الثامنة صباحا، ماتت نهلة عبد الواحد في العناية المركزة أمامه وحده، وهي تعاتبه: قلت لك هموت، صدقني.. أنا حاسة صدقني، وكان يطمئنها كطفلة ويشير بعينه إلي شاشة المونيتور: ضغطك زي الفل أهه إنتي خوافة ليه؟ قول والنبي.. أمال أنا حاسة بكدة ليه؟ خمس ساعات في العناية وحدهما منذ أفاقت من التخدير، لم يتركها لحظة، حتى ولو ليوضح التشخيص لزوجها الذي انتقل من أمام غرفة العمليات ليجلس أمام غرفة العناية المركزة، ليكرر في ذهول حين يتلقى النبأ: يا خراب بيتك يا ممدوح.

ـــ هل كانت الأمور ستختلف لو عرفــت بــأمر هــذه الــسيولة بالتحاليل؟

ـــ بالنسبة لي كنت سأعلم التشخيص فقط، ومــن ثــم لــم أكــن لأتورط، وبالنسبة لنهلة فالأمر سيان، لأن السيولة قد نخــرت كــل عوامل التجلط في دمها، الذي ظل منضغطا خلف فلينة أزيحت فقــط أثناء الفحص.

ـــ هل كان من الممكن تجنب ما حدث؟

ـــ نعم.. بالمتابعة الدورية والموجات فوق الصوتية مــن بدايــة الحمل.

أخذ ممدوح وأقاربه جانبا منه حين أفاقوا من الصدمة، معتبــرين أنه المتسبب فيما حدث، إذ لم تحن آن ذاك الفرصة ليشرح لهم مــا حدث علي هذا النحو المفصل، ولم يكن من ثم مجديا بعــد ذلــك أن ينقل ما حدث داخل غرفة العمليات والعنايــة المركــزة لكــل مــن خرجوا من العيادة بعد نزوله مبللا بالدم ونهلة محمولة علي ذراعي ممدوح، أو للمستيقظين في الــصباح علــي النبــأ، أو للمــشيعين، والجالسين في سرادقات العزاء، ولمن سيترددن بعد ذلك علي العيادة حتى هذه الجالسة أمامه، ومن سيصدقه لو قــال إن عــشر دقــائق أخري كانت كافية لأن يندفع الدم وحده من رحم نهلة المصممة علي الموت ـــ حتى لو لم يفحصها ـــ كزجاجة مضغوطة انتــزع فلينهــا وحده بقوة الدفع؟

الشيء المؤكد أن نهلة ماتت، وأن ما سيقوله غير مجد، وأنه مــا لم يرح رأسه قليلا فإنها ستنفجر، فما سيسوقه من حجج وتبريــرات لن يصمد طويلا في مدينة كانت في الأصل قرية تستــشري فيهــا الحواديت، وتستحيل فيها الأرحام بيوتا صغيرة وغامــضة، ترتــع

بداخلها مثل عقلة الإصبع أجنة صغيرة، بريئة ونشيطة، وأنه ــ أمام حقيقة الموت ــ لو ظل ينشد ما حدث على ربابة، فإنه لن يستطيع أن ينفي عن نفسه فكرة أنه مفرق الجماعات وهادم اللذات، الذي أنهى الحدوتة مبكرا، بلا تبات ولا نبات، وسبحان من له الدوام.

لم يسأله أعضاء اللجنة عن عدد الحالات التي ولّدَهُن وعشن، واللاتي بلغن ألفا وثلاثمائة وخمسا وثلاثين حالة. لم تذكر اللجنة، كما لم يذكر الناس في هذه المدينة التي تشبه جسدا ممددا، هادئا وراكدا، سوي نهلة والتي لم يكن يوجد منها في هذه المدينة سوي اثنتين، فولد بها بعد ذلك سبعمائة ونهلة واحدة. هل ماتت نهلة فعلا؟ وهل ماتت عزيزة التي بلغ عدد عُقَل الإصبع اللاتي تسمين باسمها في ست سنوات مئة وخمسا وستين عزيزة؟ كما تحيا الحواديت، ستظل حكاية نهلة وعزيزة علي شواطئ فرع دمياط والرياح التوفيقي والترع والجنابيات، تجوب المدينة وقراها وتعود معبقة بالحكايات الصغيرة، والمزيد من النهلات الصغيرات والعزيزات.

ــ ما الأخبار عندك؟

تجلى الشيخ سيد هذه المرة متكئا علي حافة المكتب، كأنه بنفس الجلباب الأبيض الذي كان به في الكوخ.

ــ الحمد لله.

ــ وماذا تري أمامك؟

فهم أنه يقصد حالة الولادة. رد بارتياح وهدوء:

ــ ربنا معها، تتألم وحالتها مزعجة، لكنني مطمئن.

ــ شهدت الكون وشهدت المكوِّن عنده وبأثره. ها أنت تستشرف.

وشت نبرة صوته هذه المرة بشيء من الرضـــا. كـــان يـــسمع الصوت واضحا، لا لبس فيه، وكان بإمكانه تحديد مكانه، متكئا علي حافة المكتب أمامه، بيده نفس المسبحة، يتمتم بـــالأوراد مـــا بـــين الكلمات، تشجع وطلب أخيرا:

ـــ أريد أن أراك!

يراني بعيني من رآنيَ في الرؤى ويسمعني سمعي وتلك إرادتي

غمر الحجرة نور مبهر، وبدت شمس الضحى كأنها واقفة خلـــف زجاج الشرفة المغلق. رأى كل شـــيء مختلفـــا: ســـرير الفحـــص والبارافان، دولاب الأدوية، الميزان، سطح المكتب وجهاز الـــضغط والسماعة، وجهاز السونار. لم يدر إن كان السبب في حالة الـــصفاء والبهجة، أنه لم يعتد المجيء إلي العيادة في هذا التوقيت أم لتجليـــه بوجهه المضيء هناك علي حافة المكتب، واتكائه بذقنه الحليـــق ـــ كما كان يجلس دائما ـــ علي مرفقيه في جلبابـــه الأبـــيض، حيـــث أمارات الصحة وحيث لا كبد ولا استـــسقاء ولا توهـــان؟ داهمـــه شعور بأنه سيتركه بشكل مفاجئ كما في المرة الأولي، فخطر له أن يسأله هذه المرة: فيم طلبه أول أمس؟ لكنه سمعه كمن يجرِّب صوتَه في البحث عن مقام، ينشد بصوت رقيق وهادئ وهو ينقر المكتـــب بأصابع كفه الممدودة بمسبحة:

لأفطم منكم من أتمَّ رضاعةً وأورث سري للذي فيه صبغتي
وأنفخ في روع المريد فينتقي جواهر علم الأولين بنفخـــتي

أعاده الصوت الشجي المنبعث من أركان حجـــرة الكـــشف إلـــي عوالمه القديمة، كأنه في حضرة. صوت واضح، لكنه غيـــر محـــدد الاتجاه. لا تحت ولا فوق ولا جنب. ينبعث من الـــداخل، أم يجـــيء من الخارج؟ صحو أم منام؟ كأنه ينشد بين طبقتـــين، كـــان يتمايـــل

فتصفو همهماته وترق. انتقل إلي وسط الحجرة بعد أن ضبط بنقراته الإيقاع وعثر علي المقام. عنت له الأسئلة وهو يحدق في مركز الحجرة: كيف يعاين شيخه هكذا بعد أن مات؟ وحين خطر له أن يقوم إلي منتصف الغرفة ليعانقه، ترامى صوته الشجي واضحا من أركان العيادة كلها:

أروح وأغدو في الغيوب مسافرا   محط رحال السالكين براحتي

أدرك تماما أنه ليس نائما ولا يحلم، وأن بدنه هو الذي يرتعد من الشجن علي الكرسي خلف المكتب الخشبي الكبير في العيادة الكائنة في عمارة أندراوز، بالدور الثالث، في حجرة الكشف ذات الشرفة مغلقة الزجاج، حيث امرأة في انتظار المخاض كان يبحث منذ قليل في الدولاب الذي بحجرتها عن الورق الذي أمامه الآن، وأدرك أن الواقف في وسط الحجرة ينشد هذه الأبيات ليس سوى شيخه الذي أومأ له أن يكتب عنه. منحه الإذن فأمسك بالقلم ليكتب كل ما يخطر بسمعه. لم يكن وحده صدى الصوت المتردد في أرجاء الغرفة مغلقة الزجاج، ولا الإيقاع المنضبط، ولا هذا المد التلقائي المريح للقافية كل ما جذب انتباهه إلي أن ما يلقى علي مسامعه الآن تائية طويلة، إنما تصريحه وكشفه عما لديه من منح وفيوضات، وتفاخره صراحة بما لم يفصح في حياته عنه. ظل يكتب حتى تصبب عرقا، فلم يدر كم ورقة كتب، وكم قلما غير. أومأ له فأراح يده وفرقع أصابعه. جال بخاطره الدرويش المداح، وتساءل لماذا مر هنا اليوم؟

ــ تقصد باهي؟

ــ لا أعرف اسمه.

اسمه باهي. يدور هكذا منشدا، علي عربته بحصان، واقفا كأنه يستعرض. مسكين باهي. جرى حصانه في الصحراء، فخرج خلفه،

ومر علي جماعة من أهل الله. السلام عليكم. رد السبعة سلامه في صوت واحد. تفضل. فتفضل القهوة، وما إن شرب باهي فنجان القهوة حتى كان كلبهم الذي أومأوا إليه قد انطلق في الخلاء الفسيح وأتي له بالحصان. عاد بالحصان ليجد امرأته تزوجت بأخيه الأصغر، وأبناءه كبروا وتقاسموا تركته، وقد غاب عنهم ثماني سنوات. ولأن ما غابه لم يتعد شربه فنجان القهوة، فإنه عاد من حيث أتي، واضعا عربة خلف الحصان ولم يتبعه سوى ولده الأصغر، وظل ينشد هكذا.

ـ وإلي متى يظل ينشد؟

ـ إلي أن ينتهي من السبعين ألف بيت من المدائح النبوية.

ـ ومتى حفظها؟

ـ من أهل الله أثناء شربه القهوة.

ـ وهل يكفي عمره لإنشاد سبعين ألف بيت؟

ـ الزمن لدى باهي واقف لا يتحرك.

كان باهي كما هو منذ اكثر من عشرين عاما، نفس الجلباب، تحته القميص الأبيض، وعلي رقبته اللاسة الخضراء، والدف في يديه أو يد ابنه الذي يمسك باللجام. لأكثر من عشرين عاما والحصان والولد وباهي كما هم. كأنهم لا يكبرون.

ـ وأين يذهب الدرويش باهي؟

ـ اسمه باهي السائح، وهي مرتبة من مراتب المجاذيب، ووظيفة في دولة الباطن، يجيء صباحا من دسوق، ويصلي الظهر في طنطا والعصر في سيدنا الحسين.

ـ كيف عرفت كل هذا وأنت لم تقابله؟

استأنف الإنشاد، بصوت جميل ورائق كأنه يبتسم:

ولست بناءٍ عن مريديَ لحظةً وإنّ مريدي من أراد إرادتي

وإن صواع المُلْكِ أعرف سره وأكشف أسرار الخبا والسريقة

أشاهد محبوبي وأشهد فضـــله وغُمَّ علي غيري بغيب الغمامة

كم مر من الوقت حتى يكتب تائية من أربعمائة وعشرين بيتـــا؟ وإلي متى سيكتب؟ لم ينظم شيخه فيما يعلم بيتا واحدا مـــن الـــشعر. كان ينشد بين الطبقات ــ في الحضرة فقط ــ قصائد مـــن ســـيدي أبي العينين، ابن الفارض، وسيدي عبد الرحيم القنـــاوي. يـــصبغها بجمال صوته فيحصلون علي معان جديدة لم تكن بهـــا مـــن قبـــل. يتساءل الإخوان عما يفعله إلقاؤه العـــذب بهـــذه القـــصائد، فيقـــول بتواضع:

ــ إنما هي قصائد نورانية، يهبط أصـــحابها علـــي الحـــضرة، فيمنحونها هذا البهاء.. شي لله يا سيدي ابراهيم، شي لله يـــا ســـيدي عبد الرحيم.

عرَّفه قديما في المصلي علي النهر أن الله الذي خلق كل شـــيء بقوة اسمه هو، خلق الأشياء الطيبة في الوقت الطيب المناسب وخلق الأشياء الضارة في الوقت النحس غير المناسب، وخلق لكل شـــيء ملاكا أوكل إليه الإشراف عليه، وأن الاســـم يمثـــل قـــوة خاصـــة، ويرتبط بصاحبه بقوة روحية، خاصة أسماء الله الحسنى، وأن لكـــل منها وقتا خاصا به يجب استخدامه فيه، فكما لكـــل مخلـــوق مـــلاك موكل به فإن لكل اسم خادما ولكل آية خادمـــا ولكـــل حـــرف مـــن حروف الأبجدية، وخادما لكل يوم وخادما معينا لكل ســـاعة ولكـــل فصل من فصول السنة ولكل نوع من الريـــاح ولكـــل اتجـــاه مـــن الاتجاهات الأربعة، وهؤلاء الخدام يفعلون ما يطلب منهم على نحـــو

مشابه لعملية الخلق الأولى بإذن وتفويض من رب العالمين. أمـــلاه منشدا:

فلو قلتُ باسم الله للنـــار أطفها   ولو قلت باسم الله للسحب أعطت
ولو قلـــت باسم الله للميْت أحيه   ولو قلت باسم الله للعيس أطـــت
ولو قلت باسم الله للشمس كَوِّرت ولو قلت باسم الله للنجـم أهوت
وإن قلـــوب المشركين بربـــهم   إذا قـــلت باســـم الله لله حـــنَّت

لم يره مفاخرا، أو صريحا في الكشف هكذا عما منحـــه الله، بـــل كان يردد دائما: اللهم اجعلنـــا أتقيـــاء أخفيـــاء، حتـــى المـــشاهدات والخواطر التي حدثته بها نفسه، كان يكتفي ــ ليعرِّفه أنه يعرف ــ بالتلميح بإيماءة، بنقرة في الرأس، أو بكلمة عابرة تحتمل أكثر مـــن معنى. أمعن النظر فيما كتب وسأله:

ــ ألا تخشى الفتنة يا شيخي؟

ــ بالانتقال تزول الفتنة والغرور.

في ساعة الحائط لم يكن الوقت قد تجاوز ربع الساعة، ضـــرب رأسه بيده، ونظر إلي الأوراق أمامه، أربعمائة واثنـــين وعـــشرين بيتا. كتب في نهاية التائية: أنزلت هذه القـــصيدة فـــي الإثنـــين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢، فنقره في رأسه وأوقفه وأملاه البيت المتمم للتائية:

ألا فخذوا الآحاد عني معنعنا   أصحُّ روايات الحديث روايتي

أنشد قصيدة أخرى، وبعد أن كتبها، أمسك بـــالقلم وخـــط خطـــا طوليا علي حروف الكلمات الأولي من أبيات القـــصيدة فقـــرأ اســـم شيخه (سيد الحسيني عبد المتعال). خط آخر فوق الحروف الأولـــي من شطراتها الثانية فكونت(رضي الله عنهم ورضوا عنه). وضـــع القلم وظل يخبط رأسه، كأنه يريد أن ينتبه، فقد كان يـــدرك أن مـــا يملى عليه مرعب وخطير، وأنه في حاجة إلي إشارة واحدة حـــسية،

نقرة أو خبطة مؤلمة تؤكد أن ما به لــيس هــواجس ولا هــلاوس سمعية ولا أحلاماً، بعدها ستبلغ سعادته منتهاها، لكن شــيخه غــادر الحجرة معاتبا ولائما:

لسانُ إلهيِّ يخبِّر صـــادقا	***وعزمُ إلهيِّ إذا شئت عُـذْ به***
فنطقُ إلهيِّ عن اللَّغو مُبعَدٌ	***وصمتُ إلهيِّ عن اللغو قلْ به***
وعينُ إلهيِّ لدى الله نورُها	***وبيتُ إلهيِّ إذا شئت طُـفْ به***

فانتبه معتذرا في رجاء:

ــ أعرف يا شيخي.. لكني أريد أن أراك حقيقة.

انتزعه صراخ أروي المريع والمفاجئ، دخل عليها فرآها ترتعد فزعة. قال: مالك؟ فهدأ روعها أول ما رأته. قالت باسترخاء كأنهــا لم تكن التي تصرخ :

ــ حسبت أنك تركتني ونزلت.

مثل آلاف الولادات الطبيعيــة ســوف تلــد أروى، وكعــشرات الولادات الطبيعية التي يعقبها النزيــف، ســتنزف أروى، وخلافــا لغالبية حالات النزيف بعد الولادة، سيكون نزيفا حــادا، وســوف لا يستجيب لكل العقارات القابضة للــرحم، وســيتمادى الــرحم فــي الارتخاء ليستمر النزيف، وسيفشل في إيقافه تدليك الرحم من أســفل البطن، أو عصره بين قبضتين إحداهما من تحت والأخــرى أســفل البطن، فيحشو المهبل بالقطن ويعطي المزيد من المحاليل بالوريــد، جلوكوز وملح، على أمل التوقف، فلا يــضطر إلــي فــتح الــبطن واستئصال الرحم. وسوف تنتبه نسبيا أروي، كلما انقــبض الــرحم

قليلا وقل الدم النازف من أسفل، فيراوده الأمل الكبير في توقف النزيف بهذه المحاولات الأولية، وستحتفظ بالرحم، فلا يحكم عليها بالعقم النهائي. يزعق:

ـ أروى.. عاملة إيه؟

ـ هه؟.. آه..

يراوده الأمل، كلما سمع استجابة أو حركة. أمبولان آخران من الميثرجين. لا استجابة. سيفعل الخطوات المتبعة لعلاج نزيف ما بعد الولادة. يحفظها كاسمه. امتحن فيها في البكالوريوس وسألته عنها أول أمس لجنة الماجستير. يحقن من أسفل البطن الرحم نفسه بالإنزابروست، آخر ما توصل إليه الطب في العقارات القابضة للرحم، هكذا قال أمام اللجنة أمس، لكنه يرى الآن بعينيه أنه لا يفعل شيئا. يا لطيف اللطف. لماذا لا يفيد الإنزابروست؟ ولماذا أمام الموقف تأخذ الأمور منحي مختلفا؟ الله يخرب بيت اللجنة، علي بيت شركة الأدوية، علي بيت مندوبيها وجيش الأساتذة الساذج الذي يروج لهذا العقار بأنه الحل السحري لوقف النزيف. لطفك يا رب. أمل ينهار أمام عينيه بعد أن تجدد. هل يحقنها بالكالسيوم الذي قال عنه أستاذ الفسيولوجي أنه يحسن وظائف العضلة ويساعدها علي الانقباض. قال ذلك في بحث طويل بمؤتمر، وركز خصوصا، وعقد آمالا كبيرة علي فائدة هذا الكالسيوم المتوافر والرخيص في وقف نزيف بعد الولادة الناتج عن ارتخاء عضلة الرحم. حقيقة فسيولوجية بسيطة، تناقلها أطباء الولادة الذين يتعرضون لمواقف مماثلة. حقيقة درسها الجميع في ثانية طب وغابت عنهم. صارت حقنة الكالسيوم هي القشة التي يتعلق بها الغريق. هل ذكر أستاذ الفسيولوجي كم بالمائة من حالات النزيف بعد الولادة تلك التي تتحسن بحقن

الكالسيوم في الوريد؟ نسبة ضئيلة. لا يهم. ألا يمكن أن تكون أروي منهم؟ رفع الحشو، فتدفق الدم عنيفا. أمل تجدد في لحظة وانهار في لحظة. كيف سيشرح لوكيل النيابة كل هذا التسلسل، والحكم علي تجربة بعد انتهائها، يعد حكما علي تجربة أخرى، من قبل شخص آخر هادئ الأعصاب يجري بروفة، يضع في يقينه ــ ولو بعقله الباطن ــ النهاية التي عرفها مسبقا، وهي موت المريضة، فيتضح الخطأ تماما كهدف تليفزيوني يعاد ببطء.

قاطعه وكيل النيابة. لم يعطه الفرصة ليتكلم. وكيل النيابة الذي يعرفه منذ كان يسكن أمامه في مبني "ح" بالمدينة الجامعية، ويلتقيان وجها لوجه أكثر من مرة في نفس اليوم. لم يصر اليوم علي تجاهله وعدم معرفته فقط، إنما بالغ في إذلاله وإهانته، فاختار الصمت. وكرد فعل متعجرف علي سكوته، سيرفض الاعتراف باسمه، وسيأمره بخلع هدومه، ليتعرف عليه فيما يكتب السكرتير خلفه: للجاني جسد طويل، وشعر أكرت، برونزي في حوالي الخامسة والثلاثين، به شامة أيمن العنق، كثيف شعر الصدر والبطن، يدعي أن اسمه فلانا، ويدعي مهنة طبيب أمراض نساء. سيزيح البطاقة وكارنيه مزاولة المهنة جانبا ويكمل الإملاء، دون أن ينظر نحوه: تحال البطاقة والكارنيه وشهادات التخرج للأدلة الجنائية، وتبلغ السلطات الصحية والنقابة الفرعية للأطباء بمراجعة العيادة وتراخيصها، ويبصم المتهم وتعرض صحيفة الحالة الجنائية . لن يتنازل عن صمته ما دام وكيل النيابة متخذا ذلك الموقف العدائي، وسوف يمنع دموعه أن تنحدر ويضع يديه علي صدره بنفس الهدوء والصمت القاتل، إلي أن يضايقه أن يلبس ملابسه، فينهره:

ــ مين اللي قالك البس؟

ساعتها سيود لو ينتهي الموقف كما أنهاه أبـوه علـي طريقتـه، فيقفل التحقيق دون إجابة حتى عن السؤال الأول، حين فـتح خطـأ طريق المخازن، بدلا من الطريق الطوالي، أمام قطار زفتي بسرعة قيامه المتزايدة فخرج عن قضبانه، لتنقلب ثـلاث عربـات خلـف الجرار الذي حطم سور السكة الحديد. كان مـا حـدث كافيـا لأن يتسمر في مكانه وينزله عساكر الشرطة من البلـوك علـي الـسلم الحديدي مرتعدا في ذهول من يخطئ لأول مرة قبل انتهاء خدمتـه النظيفة بأسبوع. انتفض أمام وكيل النيابة كـأن بـه بـرد شـديد، واصطكت أسنانه، ولم يكد يلمس جـسده الكرسـي حتـى انـتفض لشخطة وكيل النيابة، ثم تهاوي مرة أخرى من يـد الـصول علـي الكرسي. نهره ثانية ليقف، فكف عن الارتعاد ولم يقف.

أعاد خلع الملابس مرة أخرى دون أن ينظر له. لـم يكـن قـد ارتداها إلا بعد أن صمت فترة طويلة أوحت له بأنه سيملي أوامـره وسيقفل المحضر. أكمل الخلع، وتأكد وكيل النيابة من امتثاله، فقـال متنهدا:

ــ إلبس هدومك!

سنتان في مبني "ح". الدور الرابع. الغرفة ٣٠٢ تقابـل الغرفـة ٣٠٩، أولي وثانية حقوق، خامسة وسادسة طب، كلما فـتح البابـان يلتقيان، في الحمامات، في المطعم والمسجد، هزيل كمـا هـو، وإن زادت عليه البدلة النظيفة الواسعة قليلا، وهـذه العظمـة والنظـرة الشرسة الكارهة وهو يتكئ بمرفقيه علي حافة المكتب، ينظـر لـه ويملي السكرتير:

ــ يستدعي الطبيب الشرعي وتستخرج جثة المرحومة عزيـزة السيد شاهين لبيان سبب الوفاة.

يرن التليفون، فيتلقى مكالمة. يخرج وهــو ينظــر لــه بغــيظ، ويستدعي زميله ليقفل المحضر، ويوصيه بأربعة أيــام علــي ذمــة التحقيق. كأن التجريس لم يكن كافيا، ليجيء الطبيب الشرعي علــي رأس أكثر من ألف رجل وامرأة وطفل تتجــدد أحــزانهم، يقــودهم الصول عبد ربه، وإبراهيم عجورة خفير المقابر، وجمعة أبو الجود الحانوتي. تم التعرف علي القبر وكتابة أوصافه، واستخراج الجثــة بعد رش الماء أمام القبر وفرش ملاءة، وهــش الــذباب الأخــضر الكبير بمنشة جريد، وضع الطبيب قناعا واقيا وارتــدي القريبــون أسوة به كمامات، وأخذ عينة من المخ والــرئتين والمعــدة، وفــتح الجرح، وفك الغرز، ثم تحرك فتحركت خلفه كل هذه الجوقة. عاين العيادة ووصفها تفصيليا في تقريره: الكراسي واللمبــات والأبــواب والمساحة والآلات والأسرة والملاءات وحالتها والحمــام والمطــبخ وأدوات التعقيم والمكتب والأكسيجين. طمأنه بينما هو متكور علــي مكتبه وصامت بإنجليزية هادئة بأن موقفه سليم، فخطوات العمليــة سليمة: فلا تجمع دموي بتجويف البطن، وليس ثمة خطأ جراحــي، وهنأه بلغة باردة بأنه أتم خطوات الجراحة وخاط طبقــات الــبطن وأقفل الجرح بنفس الكفاءة والهدوء رغم أن المريضة كانت قد ماتت قبل ذلك بخمس دقائق علي الأقل، لكنه لن يكــون ســعيدا ببــراءة متأخرة وهزيلة، لا تمحو إهانة ولا تزيل ضررا. براءة كالإدانة.

كآلاف الحالات التي تلد ولادة طبيعية ســتلد أروي، وكعــشرات الحالات التي تنزف بعد الولادة الطبيعية ستنزف، وكالقلة اللاتــي لا يستجبن للخطوات التقليدية لتوقف النزيف، سيكون من المحتم ــ مــا لم يلطف اللطيف من عنده ويتوقف وحده مثلما يحدث كل مرة فــي آخر لحظة ــ إجراء العملية البغيضة واستئصال الرحم كي يتوقــف

النزيف. العقم أم الموت؟ أي الإجراءات يتبع. ومن يأخذ موافقتـــه، الوقت جد ضيق قد لا يتسع لنقلها إلي المستشفي، ولا يتسع لــشرح ما يحدث. فقط يمكن استدعاء طبيب التخدير، وحـــده الـــذي يقـــدر. وحده الذي يفهم بالإشارة، فورا..، احـــضر.. نزيـــف شـــديد بعـــد الولادة، خدر فورا. استئصال؟ نعم. يدرك الآن لماذا يصاب أطبـــاء الولادة أكثر من غيرهم بالأزمات القلبية. توكل علـــي الله. يعـــرف وضع الطوارئ. لا يناقش. في دقيقتين نامت. وعشر دقائق لا أكثر استأصل الرحم. قل النزيف لكنه لم يتوقف. يربط الأوردة والشرايين ويتنهد. لا يتوقف النزيف. لطفك يا ألله. يربط الـــشريان العجـــزي الذي يغذي الحوض كله. آخر الحلول يا عمر. هذا المجـــال أزرق. الدم أزرق. يغلق البطن في طبقات. صرخ عمر بقلق:

ـــ حاول تخلص بسرعة.

الدم أمامه في المجال ازرق. ازرقت المريضة، ونفخ عمر فـــي الجهاز. ضغط مضخة الأكسيجين ضغطات متوالية وعنيفة. لمـــس الفرش المعقم وهو يضغط بيديه قلبها ضـــغطات عنيفـــة ومتتاليـــة وعيناه علي وجهها. هل توقف القلب؟ أدخل الـــسماعة بعنـــف مـــن صدرها. يستجدي القلب المتوقف أن يـــدق. انقلبـــت الـــدنيا داخـــل الحجرة وكأنها أظلمت فجأة. لم يعد بوسع أحدهما تذكر مـــا الـــذي حدث في الدقائق الخمس الأخيرة، قبل الخروج من الغرفة. هل خيط الغشاء البريتوني وعضلات البطن والشيث والجلد كل في طبقتـــه أم لا؟ هل وضع الضمادات علي الجرح وثبت اللاصق كما يفعل فـــي كل مرة؟ لا يذكر سوى أن امرأة تموت الآن بـــين أيـــديهما، ولـــن يفيدها إغلاق البطن بنفس الخطوات من عدمه مـــا دامـــت ماتـــت، وليس هناك أدني شك في أن المسئولية ستقع علي أحدهما أو كليهما.

بدا أن أحدهما لا يمتلك الحقيقة الآن، ليفهم ما حدث، لا ليشرح سببه لمن يصرخ بالخارج في عصبية وهستيرية دون استعداد لفهم ما حدث. المهم أن امرأته ماتت. الشيء الوحيد المؤكد، أنها ماتت. فارقت الحياة ولا سبيل إلي إعادتها. بدا الأمر كذلك حين خرج عمر أولا. ترك حقيبته كأنه يتنهد، في ذهول. خبط رأسه. فكر ما الذي يفعله. هداه تفكيره إلي أن يترك المكان. يهرب كما يهرب سائق صدم شخصا، تاركا كل شيء وراءه. رد فعل طبيعي لدى الإحساس بالرعب أو الخطر. خرج كأنما ليحضر دواء ناقصا من سيارته. نزل السلم ببطء. أسرع في منتصفه. ثم هرول في بسطة الثاني، حتى سمعت برطشة هبوطه. كيف امتلأت الصالة بعد ذلك بالواقفين، أمام باب العمليات الموصد بلافتة: ممنوع الدخول، فلم يراعوها ودفعوا الباب في الوقت الذي كان يهم بفتحه للخروج، وهو يخلع قفازاته في ذهول. امتلأت الحجرة الضيقة بالأهالي حول ترابيزة العمليات. انكشف ستر الحجرة. الآلات علي الترابيزة، آثار الدم في الماء الساخن بالأطباق يعطي انطباعا بأن الطبق مملوء فعلا بدم المريضة. لم يعد بإمكان أحد من هذه اللحظة فصاعدا أن يسيطر علي شيء. فتح غول الحكايات التي لا تنتهي فمه بأساطير. وانتاب الذهول الذين رأوا طبقي الماء المدمم للمرة الأولي في حجرة عمليات لم تمهد لاستقبال أهل مريض انتهي لتوه من إجراء جراحة. إغماءات وانهيارات. لم يكن بوسعه ترتيب آلاته وحجرته حتى لاستقبال الناس، مثلما يفعل في كل مرة. فيأمر الممرضة والشغالة بالدخول أولا، لإزاحة وتنظيف الدم الناتج عن القيصرية والمشيمة، تغطية الآلات والفرش الملوث بالدم، تنظيف المريضة وسترها بملاءة خضراء، رفع الأنبوبة الحنجرية، وإزالة المخاط من جانبي

الفم، مسح دموع المريضة وهي تفيق لتقليل احتقان العينين، ونـــزع المحاليل وإغلاق الكانيولا تمهيدا لنقل الحالة إلي أهلها فـــي حجـــرة الإقامة. يبين قبل كل ذلك حركات ذراع المريضة، تألمها أو حتـــى صراخها والذي يسكت فورا حين تسرع خلفهـــا الممرضـــة بحقنـــة المسكن. خطوات تتم دائما عقب كل عملية بمجرد إيماءة منـــه فـــلا يصدم مشاعر الأهل. يومئ لهم في تواضع، حتى لو حـــدث أن رأوا شيئا فإن مريضتهم التي تفيق الآن من التخدير وتهلوس بصوت عال وتحرك أطرافها يعطيه الحصانة، ويجعل لما يفعله قيمة باعتبارهـــا من وجهة نظرهم عملية جسيمة وخطرة. يستأذنه الأقـــارب لإلقـــاء نظرة، فيومئ برأسه وهو يخرج بجسمه أولا من الحجرة:

ــ حمدا لله علي السلامة.. اطمئنوا.. دقيقة واحدة وتخرج لكم.

لم يكن بوسعه وهو يفتح الباب أن يمنع اندفاعهم للحجرة، وقد بدا صوته ضعيفا أمام تيار هادر وغاضب جرح كل شيء. أصبح الأمر أشبه بستارة انفتحت فجأة علي فرقة موسيقية لم تستعد ولم تنـــتظم، ليطلعوا في حجرة عمليات غير ممهدة لاستقبال أحد علي مريـــضة فارقت الحياة للتو:

ــ عزيزة .. يا عزيزااااة؟

ارتمي صامتا في حجرة المكتب علي الكرسي، واضعا يديه علي صدره في حالة ذهول. يرد علي بعض العقـــلاء بكـــلام مقتـــضب. يتلقي الصراخ والشتائم. لا يعي شيئا وهـــم ينظـــرون إلـــي قفـــازه المخلوع، وآثار الدماء علي حذائه البلاستك باستغراب، كأنه شخص ذاهل ارتكب لتوه جريمة قتل، في حالة تلبس. من أيـــن جـــاء كـــل هؤلاء الناس؟ لديه اطمئنان غريب بأنه لم يخطئ، وأن ســـببا آخـــر وراء موت عزيزة. تموت عزيزة لو لم تسيطر علي النزيـــف مـــن

الشريان الرحمي، أو طالت العملية دون داع، وكلتـا الحـالتين لـم تحدث. هذا هياج خارج المكتب، وهذا صوات يـأتي مـن غرفـة العمليات التي فتحت وامتلأت بالناس حول المريضة المسجاة، وهذه ضجة كبيرة قادمة من الشوارع التي امتلأت عن آخرها، كيف؟ لـو لم يكن مطمئنا أنه لم يخطئ، لم تكن لتواتيه الشجاعة ليجلس هكـذا وسط منهارين يصرخون في هيستيرية لا يحسب رد فعلهم .

ــ عزيزة؟ عزيزاااة!

خرج الصوات من النوافذ، فالتقي بصياح الشوارع. ترش الملـح فلا ينزل، حتى لو فكر في النزول الآن كيف سيستطيع اختراق هذه الجموع المحتشدة بلبس العمليات الذي لم يخلعه بعد. هل فعل عمـر مبكرا ما ينقذه من رد فعل متهور لأهل المريضة؟ لم يكن بالمكتـب فراغ سوي الكرسي الذي جلس عليه. يعتقد أنه لم يكن حتى بإمكانه القيام، مجرد القيام. وسط هذا الجنون برز رجل ملثم، بجلباب بلدي. صوته غليظ. فرد ذراعيه في الهواء. حجز عنـه النـاس، وتكلـم بصوت عال وعاقل، رخيم ومسموع وحكيم. ما حـدث حـدث، ولا فائدة من كل ما يفعلونه، إنا لله وإنا إليـه راجعـون. لفـوا ابنـتكم وخذوها. كيف هدأ الناس والتخموا في لفها وإخراجها، وكان هو مـا يزال يتكلم ويشيح بذراعيه الطويلتين في أرجـاء المكتـب، كأنـه يشرف علي ما يفعلونه، وهو صامت علي مكتبه، فقط تدور ذراعاه الطويلتان كمروحة، يتطلع إلي وجهه فيشير بعينه له أن يسكت، فلا جدوى من رده علي أسئلة عبثية لا يفيد الجواب عنهـا، والـسائلون في عصبية وانهيار لا ينتظرون إجابة أو فهما. وقف أمامه ضـخما وعريضا، يحجزهم، ويمنحه فرصة ليغلق رأسـه قلـيلا حتـى لا ينفجر.

بدت جلسته الهادئة وسط هذه المعمعة أسفل ذراعيه موحية بـأن الخطأ قد لا يكون خطأه، وأن طبيب التخدير الذي اختفي ربما كـان هو السبب، مما دفع زوج عزيزة إلي تبليغ النيابـة. قـدم شـكوى مباشرة، اتهمه شخصيا بقتل عزيزة، خروجا علي ما فعله أهله مـن التسليم بقضاء الله وحكمه، بعد دفن الجثة بتـصريح مـن المركـز الطبي، بناء علي تقرير تفصيلي كتبه.

كما رآه قديما في حقول الساحل المنحصرة بين مجـرى النهـر والطريق المرتفع، رآه حقيقة، باسطا يده إليـه. احتـضنه فترقـرق الدمع في عينيه وتنهد معاتبا:

ـــ لماذا كنت غائبا عني قبل ذلك؟

ـــ ومتى غبت عنك؟

ـــ ألم تغب أربعة عشر عاما ولم أرك إلا أول أمس.

قال بنفس البساطة:

ـــ كنت معك.

ـــ أحقا يا شيخي.. كيف؟

ـــ من الذي كان يحوطك من الناس يوم ماتت عزيزة؟

ـــ الملثم؟

ـــ ومن تراه كان وكيل النيابة الثاني؟ ومن كان الطبيب الشرعي؟ ومن كان الذي يصلي عن يمينك في السيدة؟

عاد ثانية إلي التائية:

أروح وأغدو في الغيوب مسافرا   مَحَطُّ رحال السالكين براحتي

وريح رخائي تحمل الخير للدنا   أصيب بها من ترتضيه إصابتي

رفع القلم ونظر نحوه. كأنما رفعت الغشاوة عن عينيه، رآه جالسا أمامه، متكئا علي حافة المكتب بجلبابه الأبيض ووجهه الممتلئ وذقنه النابتة، كملاءة بيضاء طويت من أمام عينيه، بدت شمس الضحى صريحة خلف شرفة المكتب، وكان كما تركه عند الكوخ، وبدا هذه المرة أنه يريد أن يتحدث، وأنه غير متعجل. استفسر بمحبة:

ـــ أكنت معي في كل ما مضي فعلا؟

ـــ أو تراني أترك وارثي ليسجن؟

كان الملثم الذي حجز الناس عنه، وكان الطبيب الشرعي الذي طمأنه، ووكيل النيابة الثاني الذي أطلق سراحه. تذكر غيبته القديمة عنه يومين، كان قد زاره وأمام باب شقته انتظر لحظة قبل أن يضرب الجرس. لم يفتح الباب كالعادة فرجع. في اليوم التالي فعل ما فعل إلا أن الباب لم يفتح أيضا. حين أخذته الظنون رآه أمامه في المسجد، فسلم بحرارة وسأله: أين كنت، فقال بمحبة وفرح ونشوة: كنت عند سيدنا، وكيف وجدته؟ قال: نور خالص. وبم عدت؟ قال: بسبعين منحة: ألا ينجذب مريدي، وألا يدخل الخلوة، وألا يرتدي الخيش أو الهلاهيل، وألا يسجن، وألا يجوع ولا يعري ولا يدخل جسده شيطان، ولا يصيبه شلل ولا سرطان ولا باسور، وألا يرى نور نفسه فيصيبه الغرور، وألا تصيبه الغفلة، وأن يتمكن من قراءة

ورق الشجر والماء والهواء والحب والنوى، وأن يقرأ ما هو مكتوب في قبة السماء، وما هو مكتوب علي الخلق والرزق، وأن يرث علما برواية وعلما بلا رواية، وأن يتجاوز توبة الهداية إلي توبة الخواص، وأن يتدرج من ذكر اللسان إلي ذكر القلب إلي ذكر الروح إلي الاصطلام إلي المشاهدة، وأن ينتقل من نطق اللسان في الظاهر إلي النطق بلسان الضمائر، وأن يتكلم بخفيات السرائر، فيقرأ من اللوح رموز معان دقت ويشرب من أوان رقت، ويخرج عن الكل فيكون مع قلبه، ثم يصير مع مقلبه، فلا حركة ولا كلام فلا يسمع إلا همسا، وأن يتقرب فيصير جليسا، ويستمتع بالمجالسة والمحاضرة والمشاهدة والمؤانسة، فتفتح له خزائن مملوءة بالأسرار والأخبار والمكنونات، ويصير من أولي العطاء، ويكشف عنه الغطاء، ويأتنس بالحقائق فيكون من أولي السعادة، وأن يمنح توبة الخواص عما خطر له واختلج في أسراره، وألا يموت كما يموت الناس، مرض فعيادة، إنما ينادى فيجيب.

ـ أأرثك؟ أنا؟!

ـ نعم.. أنت الوارث.

ألهذا طلبه؟ ولهذا يجيء؟ تتحرق نفسه شوقا إلي أيام الصفاء والشفافية الأولي، إلي الجلسات الطويلة والتحديق في ماء النهر عند انحناءته التي يتجه فيها شمالا نحو المدينة، وتأمله في جزيرة الموز ملك أولاد فهمي بوسط النهر، لكنه لم يصدق ولم يخطر بباله أن يرث شيخه. قال له إن الواردات الإلهية قلما تكون إلا بغتة، صيانة لها عن أن يدعيها العباد بوجود الاستعداد. هل يختاره الشيخ وارثا بالفعل؟ ليست حياته بيضاء من غير سوء. هو مهمل ومستهتر،

أضاع زمنا من عمره وفرصا كثيرة. جالت بخاطره علاقته بعائشة وانتصب الولد الذي حمل اسم أبيه أمامه حائلا، فدمعت عيناه:

ـ تعلم يا شيخي أنني لست أهلا لذلك.

ـ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

ـ يا شيخي .. ذنوبي عظيمة.

ـ محوناها بفضله ومغفرته.

احتار، إذا كان شيخه معه، فلم تركه إذن يرتكبها من البداية؟ لم لم ينقره؟ جاءه صوته حاسما:

ـ وما فعلته عن أمري.

كان قد اتخذ القرار: أن يظل يضرب رأسه بالحائط بعنف حتى يتحطم الوعاء الذي لم يستطع أن يفرغه من طيف عائشة الذي ظل يطارده لتسعة أشهر حتى في الصلاة فيخرجه من جامع البحر. يستدعيها رأسه من غيبتها البعيدة، يتتبعها وهي تكنس السطح وتؤكل الطيور وتلم الهدوم، يختلس النظر من بين صفحات الكتاب إلي صدرها المتحرر حين تقوم وتنحني وتجلس وهي تجفف بطوق الثوب الأبيض القديم رقبتها الغارقة في العرق ووجهها الأحمر كالكبدة. تنتهي فيرهف السمع إلي ارتطام الماء بجسدها وهي تستحم، وهي تجفف جسدها من الماء وتستلقي في السرير علي ظهرها، حيث يكون ثدياها نافرين خلف قميصها الأسمر، وشعرها

محلولا حول وجهها المستدير الأبيض. تظل ساهمة تنظر في عينيه فلا يدري من الذي يراود من، وحين يصل إلي الصرخة المكتومة والضمة المرتعشة، يشده الواقف بجواره عندما توشك الركعة الثالثة أن تنتهي وهو ما زال يهز سبابته في التشهد.

صار لا يقرب الصلاة، ولا يدخل جامع البحر. تنطلق شياطين جسده من معاقلها لأدني حركة لعائشة. مجرد نفضها لمؤخرتها من طول الجلوس علي الأرض، أو تمطيها متثائبة وهي تضع الأرز جانبا لتكمله في اليوم التالي، أو هدهدتها لأطفال الجيران وهي ترطب بريقها حلمة البزازة قبل أن تضعها في أفواههم. تؤجج الشياطين جسده، فيجري إلي السرير حتى خيل إليه أنه يعيش في جنابة دائمة واحتلام متواصل. هل لاحظ أحد شيئا؟ سأله أبوه: ما الأمر؟ قال: أي أمر؟ فأشار إلي تغيره وانفلات أعصابه وميله إلي العزلة. وسأله أخوه في إجازاته الشهرية بدون عائشة فلم يجب، وبالغ في عدم السؤال عنها خشية أن يفتضح أمره، أو يكون سؤاله بداية لمواجهته بفعلته، حتى الكلام المعتاد كان يتجنب التورط فيه معه، فقط يلتقط أخبارها حين تجئ عرضا في الحديث. هل باحت لأخيه فمنعها من المجيء؟ في موعد الإجازات يظل بحجرته العليا قلقا، يحدق من الشباك، يتلهف أن يراها داخلة معه، لكنه يجيء وحده، فهل باحت له؟ قال أخوه وهو يسلم عليه مستفسرا عن تغيره: ما الحكاية؟ فهل باحت له؟ ثمانية أشهر وهو يستدعيها من غيبتها المفاجئة، فلا يفارق وجهه ثدياها، ولا يداه حلق الثوب الذي قده، حتى تهز بدنه تلك الارتعاشة التي يخلد بعدها إلي نوم عميق ثم يصحو علي نفس المشهد.

ثمانية أشهر، بعدها قال لأخيه: لماذا لم تأت عائشة معــك؟ قـــال إنها تعبانة. جُنَّ جنونه. كان يريد أن يذهب إليها في عنوانه. يفتعــل الزيارة ليعودها في مرضها. قال له بانفعال: لماذا لا تـــأتي لتكــون بيننا، نراعيها في مرضها؟ قال أخوه بصبر: شهر وتبــدأ الإجـــازة ونعود بطبيعة الأمر. كاد الجنون يقتله. لا يصدق أنـــه الـــذي فـــي المرآة. ما هذا الهزال؟ سيموت حتما. وشهر كثير جدا وطويل ولـــن يتحمله، شعر أنه يكره أخاه بالفعل، ولم يشعر بذنب وهو يفتعل لـــه الحوادث السيئة والمصائب القدرية، كي تعود عائشة إلـــي حـــضنه، ويخطط كيف يراها لأطول وقت ممكن، فيما لو فشلت الأقدار فـــي إزاحة أخيه من أمامه. كتب خطابا باسم الأب إلي الشركة يستعطفهم بنقل ولده إلي مكان قريب، يتمكن أن يسافر إليه يوميا ويعـــود، دون أن تكون به حاجة إلي أن يأخذ عائشة معه. عدل عن إرســـاله إلـــي الشركة وأرسله إلي برنامج"همـــسة عتـــاب". انتزعـــت الموســـيقى المؤلمة الدموع حتى قبل أن يقول الصوت المتهدج: أنا يا حـــضرات المستمعين أب مسن، ماتت زوجتي منذ زمن وتركتني في الدنيا مع طفلين كالقطط المغمضة، ربنا قواني وربيتهم، الكبير موظـــف فـــي شركة الأسماك، والثاني طالب في الثانوية العامة، وكانـــت حياتنـــا عال العال، لحد ما نقلوا الكبير إلي فرع الشركة في أســـوان، ومـــن يومها يا حضرات المستمعين وحياتنا أصبحت جحيما، لأن الكبيـــر أخذ زوجته التي ملأت علينا البيت وأنستنا وفاة المرحومة، وأنا يـــا حضرات غير مهم، فأنا أخذت حظي من الحياة، إنما خـــوفي كلـــه علي الصغير، سيموت حتما يا حضرات المستمعين، لـــذلك أناشـــد السادة المسئولين بأن ينظروا إلينا بعين الرحمة وينقلوا ابنـــي إلـــي

فرع للشركة قريب، ليس مهما في مدينتنا، إنما يقدر يروح ويجـــيء منه في نفس اليوم، من أجل أن يرعانا أنا وأخاه.

لم يذكر في الخطاب شيئا عن فرع الشركة في المدينة، فتتاح له علي الأقل فترة النهار، ولن يفعل شيئا أكثر من أن يجلــسها أمامـــه ويظل ينظر إليها. اقترب الموعد، وجاء أخوه وحده، زعــق، فقـــال أخوه إنها ستجيء الأسبوع القادم. صرخ بحدة: ولماذا لم تحــضرها معك؟ هل قالها بغلظة؟ هل قالها بحدة، حتى يضربه أبوه كـــل هـــذا الضرب المبرح وهو لا يشعر؟ يضربه ويقول، إنه لم ير أخا يعامل أخاه بهذه الغلظة، وقال وهو يضربه: مـــا الـــذي غيَّـــرَك؟ تـــدخل الجيران، حالوا بينه وبين أبيه، وهو صامت يحدق فيه كأنه لا يشعر بالضرب. يحوشه الناس فيضرب أكثر ويصرخ:

ــ ما الذي حدث لهذا الولد؟ هل جُنَّ؟

يحدق نحوه كأنه يتحداه. بالغ في ضربه، فلم يبك، ارتخت ذراعه وهمدت ولم يبك، فبكي هو واحتضنه:

ــ ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟ أستغفر الله العظيم

كان صامتا لا يرد، مندهشا، ألجمته المفاجأة، شلت تفكيره فظـــل صامتا لا يتحرك ولا يجري ولا يهرب، لم يضربه قط بهذا العنـــف وهذه القسوة، لأنه عامل أخاه بما لا يليق بأخ أكبر. انحنى الأخ علي يد أبيه وقبَّلها وقال إنه سامحه. وظلت يده ترتعد، حتى ذهـــب إلـــي عمله في الصباح، وفتح بذات الذراع المرتعدة طريق المخازن أمام قطار زفتى، بدلا من الطريق الطوالي.

صدم في هذا اليوم مرتين، فقد مات أبوه حتى قبل أن يجيب عن السؤال الأول في التحقيق، وعادت عائشة من أسوان بآلام الـــولادة. وهو يسير بكتفه أسفل نعش أبيه، كان قد اتخذ القرار. كـــان يخـــبط

رأسه في جدران المقابر في صمت، انتبه المشيعون على الطرقات المتتالية والمكتومة والدم النازل على الوجه، فحالوا بينه وبين الجدار، ودمعت عيونهم، وهم يمنعونه:

ـ لا تكن كافرا.. ما تفعله لن يعيد الذي راح..

منعوه. فالحي أبقى من الميت، لكنه كان قد اتخذ القرار، فامتنع عن الطعام، وأرهق جسده بالسهر، والتزم غرفته لا يبرحها ولو إلي مسجد البحر. كما هزم الجسد، انشغل بهزيمة الرأس. انكب على المذاكرة، يقرأ كل شيء، يحفظه. الحفظ عقوبة الذهن. استظهر عمليات حسابية معقدة، ودليل تليفونات المدينة، وحفظ كم حبة في كيلو الأرز والسكر والقمح. كان قد اتخذ القرار، ألا يترك عقوبة فيها إرهاق للذهن أو إجهاد للجسد. ظل يخنق حتى انطفأ كل شيء، وظهرت نتيجة الثانوية العامة، وعادت عائشة كما كانت من قبل، تروح وتجيء فلا يراها، وأصبحت في حجرتها المجاورة بعيدة، كأنها في أسوان مع أخيه. وفي طب عين شمس، زاد البعاد، وعادت عائشة التي يقابلها مع أخيه كل أسبوعين عائشة أخري غير التي في المشهد، فقط كان يختلس النظر إلي ابنها، فلا يستطيع أن يتبين إلي من تنتمي أكثر ملامحه، إليه أم إلي أخيه. وحدها عائشة ربما التي تعرف.

كان عبد المجيد يخرج من حكاية ويدخل في أخرى. يأخذ من هذه لتلك، ويميت أشخاصا هنا ويحييهم هناك، غير أن حكاية الكنز وحدها ـ دون كل ما يهذي به عبد المجيد ـ ظلت الأثيرة لديه. يسردها بلا تحريف، ولا يبدل من أحداثها شيئا مما اعتاد تبديله.

وقد ظل الملك الذي احتار في أمر من يرثه، يبكي طوال الليل لأربعة عشر عاما طالبا من ربه أن يهبه الذرية، حتى تصادف أن كانت أبواب السماء مفتوحة، ومنحه الله طفلة جميلة، فكتب على بوابة القصر:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب.

حزن وزيره الذي كان قد رتب لنفسه الانفراد بالحكم، فلجأ إلي كبير السحرة ليخفي الأميرة. ثار الملك وأقال رئيس الشرطة، والحرس الخاص بالأميرة، وخادم الملك، ورصد المكافآت لمن يدلي بمعلومات عن الأميرة، فاجتمع في القصر فاتحو المندل بقارئي الكف وضاربي الرمل وقارئي الطالع، قالوا: إن الأميرة محبوسة ببئر عميقة، وقد عُقِد قرانها علي الجن الأرضي ميمون النكاح، ولا يفعل ذلك إلا من توضأ باللبن وصلي عكس القبلة وقرأ القرآن بالمقلوب، ثم تلا قسم ميططرون ملك الأرواح الروحانية الأبرار، الساكنين تحت عرش الملك الجبار، الساجدين لله الواحد القهار ليأمر خدامه وأعوانه الميامين السبعة الأرضيين بخطف الأميرة وتزويجها من ميمون النكاح.

اجتمع الفلكيون بدارسي الزايرجة وعلماء الأبراج وحساب المثلثات والدلالين، لكنهم فشلوا في تحديد البئر أو إعادة الأميرة. أرسل الملك في طلب ممتهني الوشوشة والتنويم المغناطيسي والمخاوين من البلاد، ومن الهند خبراء اليوجا ودارسي أسفار سليمان ومزامير داود، واستقبل شماسين وكهنة، لكنهم كانوا يخرجون كما يدخلون، فقال: دبرني أيها الوزير، فأتى إليه بكبير السحرة، الذي نصحه بتحويل قصوره ومقتنياته إلي كنز يرصده للأميرة، واقترح أن تكون مدة رصد الكنز مرهونة بظهور الأميرة، ومنعا للاستغلال من قبل أي ساحر، وضع أنابيب الزئبق الأحمر لتطيل الشمة الواحدة منه عمر الجن المكلف بحراسة الكنز مئة عام، وختم عليه بطلاسم لا يفكها ساحر غيره، وجعله ينتقل حتى من زمن إلي زمن، ومن مكان إلي مكان مخبوءا عن الأنظار، مرة في

قاع بحر ومرة في مدافن غير مسلمين، ومرة في قصر الملك نفسه، وأخرى في الطريق هكذا دون أن ينتبه الناس إليه.

رأى الوزير أن الملك يصر علي الاختلاء بكبير السحرة دونـــه، فخشي أن يبوح للملك بما حدث، أو أن يتراجع فيخرج له الأميـــرة، فأصدر الوزير أوامره السرية، فعثر علي كبيـــر الـــسحرة مقتـــولا خارج القصر. عاد السحرة مرة أخرى إلي القصر، فأحرقوا خمسين ألف مثقال من البخور والعود والصندل، وغلوا ألـــف أوقيـــة مـــن الرصاص، ثم أجمعوا علي أن الكنز لن يفتح إلا في موعده المحـــدد. لم يغلقوا الباب تماما، لكنهم أجمعوا علي أن الكنوز المرصودة كلهـــا تظل ليلة واحدة كل عام دون حراسة، هي ليلة القدر. أمـــر الملـــك الرعية بالخروج في هذه الليلة إلي الخلاء، والتحديق في الأراضـــي والطرق والجدران القديمة والصحراء، غير أن الكنز لم يفتح.

عقب كل مرة يروي فيها عن الكنز، كان عبـــد المجيـــد يتأمـــل واضعا يديه خلف ظهره طويلا في مكان ما، يدور حوله، ثم يجلس علي عقبيه ويعبث في الأرض بيده، ثم فجأة يحفر بالفأس بهمة قاذفا بالتراب خارج الحفرة، وحين لا تظهر يداه المرفوعتان من الحفـــرة الواقف فيها، يفتر حماسه، فيصعد مجهدا وهو يبـــصق علـــي أولاد الوسخة الذين نقلوا الكنز في اللحظة الأخيرة. وصل شـــغفه بـــالحفر مداه حين كان يلازم رجال الحفر فـــي شـــبكة الميـــاه والتليفونـــات والكهرباء، يقف شاردا لفترات طويلة، يطيل التأمل، ويقفـــز أحيانـــا ليساعدهم في الحفر، حتى ملوا من وجوده ومنعوه، لأنه يحفر غالبا بمزاجه، وفي اتجاه غير ما يسعون إليه. أخذ يلح عليهم، بـــالوقوف فقط لكنهم منعوه حتى من الوقوف، فظل حزينا لا ينام مـــن الـــسبت إلي السبت. يقظة مطلقة. في السبت الأول أخذ يدق بكفيـــه حـــوائط

الحمام المظلم ويزعق. أخرجوه وطلبوا الطبيب، فاستغفلهم وأشـــعل الموقد وظل يحدق في النار بذهول الإثنين والثلاثاء. أخرجوه عنوة إلي سريره، وأحضروا إلي جانـــب الطبيـــب المعـــالجين بـــالقرآن، فاستمر كبندول الثلاثاء والأربعاء، ينام ويقعد بلا راحة في نـــوم أو قعود. أغلق الطبيب حقيبته والمعالجون بالقرآن مـــصاحفهم واتفقـــوا علي أنه سليم. ظل الخميس والجمعة متكورا في سريره كقنفذ يحدق في فتحة الباب ويصرخ: سأموت. وصف الطبيب مهدئات وقال: لا تطلبوني مرة أخرى من فضلكم، لكنه رفض الاستحمام بماء الرقـــي أو فتح فمه للعلاج. السبت الثاني، بينما كان الطبيب الذي في عيـــادة أندراوز يغلق حقيبته بملل مكررا وهو يضغط مخارج الحروف إنـــه سليم، مات عبد المجيد.

تنهد إمام الفنجري في الفناء وهو يتساءل:

ــ ألا تعرفين لماذا مات عبد المجيد؟

ــ لماذا؟

ــ لأنه حاول فتح الكنز دون أن يحصن نفسه.

ــ منذ عرفته وهو يبحث عن كنز، فما الذي جد في الأمر حتـــى يموت؟

قال إمام إنها لا تعرف أنه في كل مرة كان يحفـــر بعيـــدا عـــن الكنز، لكنه في المرات الأخيرة كان يصطدم به، ولأنه لـــم يحـــصن نفسه جيدا كان لابد أن يؤذى من حراس الكنز. وعرض عليهـــا إن كانت تريد مساعدة. قالت شكرا، فخرج. اســـتوقفته علـــى البوابـــة الخشبية من الداخل العبارة المحفورة: "ملك الملـــوك إذا وهـــب.. لا تسألن عن السبب"، فنظر إليها قائلا:

ــ إذن شدي حيلك.

رنت إلي خارج البوابة الخشبية، فلم تجد الحصان. بكت وهي تنشر ثياب الموت علي حبل في فناء بيت من حجر، بطابق واحد أصفر حائل، معرش بكمر حديد وعروق من الخشب المصري، أشبه بفنائه الواسع وحوض المياه في المنتصف والبوابة الخشبية بطاحونة قديمة. حجرة عبد المجيد ذات شباكين، أحدهما علي الفناء والآخر علي الخارج، ملحق بها حمام ومطبخ. البيت بأكمله من حجر، والأرضية من حجر، كأنه وكالة أو مدرسة. حجرات البيت الأخرى لأروى وراشد، تطل علي الفناء، ويبطن أرضيتها خشب الباركيه، ولها شبابيك طويلة وعتيقة علي الشارع محاطة بكرانيش. قال عبد المجيد إن البيت كان في السابق مبرة، وكان مدرسة، وقال إنه كان استراحة، وكان بورصة للقطن والموالح، وقال أيضا إنه كان شونة لتخزين الغلال، وكان البيت بهيئته يوحي بتقبل هذه الروايات دفعة واحدة، وبالرغم من أن عبد المجيد كان يهذي، فإن هذه البوابة الخشبية هي التي شهدت ضربه للحاج احسن ست عشرة بلغة مدهوكة بالخراء، وهي التي نخ الحصان البني أمامها كجمل ولم يواصل السير من يومها، وعلي المصطبة التي في الفناء رقد راشد علي حجر عبد المجيد بعد موت أمه يستمع إلي حواديته، ثم رقد مرة أخرى مكبلا بالرجال والجيران عليها في ثانية إعدادي حين مسه الجان، وفي وسط الفناء شق عبد المجيد جلبابه، وخبط صدره العاري وهو يشتم العفاريت ويهددهم.

تساءل محمد البيه بجسمه النحيف وصدره الذي يخرفش من الربو، وهو يضبط طاقيته الصوف الأشبه بطربوش علي رأسه الدقيق:

ــ كم يوما مرض عبد المجيد؟

ـــ من السبت إلي السبت.

فاتكأ علي المصطبة بالفناء ووضع يده الرفيعة متفكرا أسفل عظم خده البارز ثم سألها:

ـــ وهل جاء هنا إمام الفنجري؟

ـــ جاء مرة بالطبيب وجاء مرة للعزاء.

فخبط كفا بكف:

ـــ إذن هو الذي فعلها!

ـــ فعل ماذا؟

مثل كل الفنجرية، كان إمام عديم الأصل، لا يهمه سوى القرش. خلق كي تعصب عينه ويعلق الخرج في كتفه، ويردد المدائح النبوية، ولأنه أعمى القلب، ولا ينظر إلا تحت قدمه، فإنه قبل مجيء الفرج ببرهة غالبا ما يقنط ويتحول إلي مهنة أخرى، فعمل طبالا ثم مسحراتي ثم قارئا للبخت. قطع في سبيل تحويل التراب إلي ذهب تسعا وتسعين خطوة، وفي الخطوة الأخيرة ضرب قالبين من الطوب الأحمر فصرخا وانبثق الدم منهما، عندها فهم أن نهاية سبيله الدم، فتوقف ولجأ إلي الأسهل، البحث عن الكنوز، معتمدا في تحديدها على قسم البرهتية الخاص بهارون أخي سيدنا موسي، وقسم الجلجلوتية الخاص بسيدنا علي. قرأ بعض القراءات علي سبع بيضات كتب عليها الطهاطيل السبعة، فاتجهت كلها نحو مكانه بحائط سميك يفتح بشباك جهة الشرق، وأنه مرصود بأمر من مهطهطيل، ملك يوم الإثنين بالسريانية وبالعربية جبار، وأمر من العون الأرضي مرة لنفس اليوم، لكنه لم يتوصل إلي فك الطلاسم التي استخدمت لرصد الكنز، فتكحل بعيني ديك ظل يشرب من مسقاة رصاص حتى احمرت عيناه بلون عرفه، وكان قد كتب علي

بيضته قبل الفقس لمقفنجل، الحروف الأولي للطهاطيل السبعة، ثم رقدت علي البيضة دجاجة لا تشرب سوى من مسقاة الرصاص. ذبح إمام الديك وتكحل بعينيه فرأى الأرواح العلوية، ثم تكحل بمرارته فرأى العوالم السفلية، وتكحل مرة ثالثة بدمه ليرى الكنوز المخبأة، فاطلع علي محتويات الكنز واطلع علي طلاسم الكنز فقرأ: "وكان تحته كنز لهما"، و"فأراد ربك أن يستخرجا كنزهما"، و"حتى يبلغا أشدهما". لكنه لم يستطع فتح الكنز، ورأى عبد المجيد أمامه في كل خطوة، فذكر اسم الله المميت علي ٥١٢ نواة من التمر ست مرات علي كل نواة، وشكل النوى بهيئة عبد المجيد، ثم صلى عليه صلاة الجنازة، كي يموت بعد أسبوع.

سعل البيه ووضع يدا علي صدره ويدا علي الطاقية وخرج بظهره المنحني ثم بصق، قبل أن تستوقفه العبارة المكتوبة علي البوابة الخشبية، فقال: ومتى كتبت هذه أيضا؟ ثم التفت وقال: لو قرأها إمام لعرف أن الكنز لن يذهب إلا إلي صاحبه، غير أن عمى البصيرة يورد الناس موارد التهلكة، فكلاهما رأى الكنز، وكلاهما رأى الحراس حوله، وفيما تحين عبد المجيد غفلة الحراس للانقضاض، فعل إمام فعلته.

كان البيه لا ينطق بغير الحكمة منذ لبس هدومه بالمقلوب ونام علي خشبة غسل الموتي سبع ليال، معتزلا الناس في غرفة صنع بابها من خشب نعش قديم، وطالت عزلته وهو يطلع علي كتب ومخطوطات قديمة، فلم يأكل إلا مما تنتجه الأرض، وابتلي بالانحناء والربو والصرع ونوبات الصراخ الليلي، واجتاز اختبارات عسيرة قبل أن يمتلك قراءات وتعاويذ تمكنه من إشعال النار ــ لو شاء ــ في بيوت خصومه، وإصابتهم بالأمراض وتعذيبهم بحبس

البول وإبطال النوم وتسليط الهموم والأحزان عليهم، ورجم ديارهم، وإخراجهم منها أو من المدينة كلها وتسليط الصداع عليهم وإصابة عيونهم بالرمد. تخطت شهرته المدينة إلي أقاليم مختلفة، وصار رواده من خارج المدينة ينامون ليلتين في العراء أمام غرفته انتظارا لدورهم في الدخول، حتى استعانت المباحث بخبراته في الكشف عن الجناة والإرشاد عن أماكن إخفاء المسروقات، وأمرت السلطة بإذابة تعاويذه في الماء، وكلفت الجنود برشها علي آلات الحرب فلا تخطئ، وتلاوة تعاويذه قبل الرمي ليتمكنوا من إصابة الهدف، وبمعونته فكت الأسرى وخلصت المسجونين، وكان البيه من غرفته المنعزلة عن المدينة باستطاعته تهدئة البحر وتذليل الدواب ومنع النوم أثناء ركوبها وعدم التعب من المشي والحماية من قطاع الطرق والسباع الضواري والوحوش.

عشرات المرات، كانت عائشة تخرج وتدخل من أمامه كل يوم. يعين عليها دست المياه، ويأكل معها، ويوصلها في الظلام إلي الحنفية العمومية، ويطلع معها إلي السطح لتقشير الذرة ووضع الجبن في الزلع، ويحل معها مسائل الحساب، ويضربها، ويشتمها في بيت من الحجر يواجه النهر، لا يفصله عنه سوى الطريق الذي رصف أخيرا، يمينه حجرتان ويساره حجرتان، بينهما مدخل ودهليز يفصل بينهما باب الوسط، ثم السلم الحجري، تحته دورة المياه، ثم زريبة كبيرة بعرض البيت من الخلف، وفرن الخبيز البراني.

عشرات المرات يوميا، كانت عائشة تطلع وتنزل، وتجــئ وتــروح أمامه في هذا البيت الحجري المملوك لأخوين بأسرتيهما، ولم يكــن أمامها من ثَمَّ سوي أن تنضج لتتزوج أخاه الأكبر، وتنتقل فقط مــن الجانب الأيمن من البيت إلي مقعدين بنيا علي عجل فوق الزريبة في مؤخرة البيت. ولم يكن عليه سوى أن ينضج ويكون فــي الثانويــة لكي يفصل مقعده الذي بني علي حجرة أبيه عن مقعدي عائشة سقف ترابي وفتحة السلم الحجري. لم يحدث شيء ــ حتى اتكــأت علــي مقشتها لتستريح من تنفيض وكنس مقعديها ومقعده وتنظيم فراشه ــ سوى أنه انتبه إلي أنها عائشة أخرى غير التي يعرفها، بيضاء مثل بطة منتوفة، في ثوب قديم ابيضت زهراته الصغيرة، ضاق عليهــا عند الصدر أو سمنت قليلا فتمزق من تحت الإبط وأمــام الكتــف، فقال لها لأول مرة: شكرا فضحكت حتى اهتز جسدها، هي التي لــم تكن تعلم أنها صارت عائشة أخرى، أحلى كثيرا، وأروع، يحــاول الثوب القديم دون جدوى أن يمنع جسدها من البــروز حــين تــتكلم بتلقائية أو تحرك ذراعيها وتميل برقبتها المعروقة لتجففهــا بــنفس الجلباب، فيهتز ثدياها ويبرزان كلما ضحكت أو مالت إلــي الأمــام واتكأت علي مقشتها ويشف الثوب الخفيف عن حلمتيها الغامقتين. لم تكن بهذه الحلاوة حتى في فستان الفرح الذي لبسته في حجرة أمهــا وجلست في كوشة جنب أخيه أمام باب البيت. فيما صارت نظراتــه مختلفة، كفت عن الكلام التلقائي. صارت تــسمع فقــط ولا تــتكلم، تؤمن علي كلامه برأسها وعينيها اللتين اتسعتا أكثر مــن أي وقــت مضي، ووجهها الذي ازداد استدارة وبياضا. عائشة أخرى بــضة، يؤطر رأسها إيشارب قديم، فتبين أسفل حافتــه خــصلات شــعرها المبتل بالعرق. توقف الكلام واستطالت النظرات. قال متلعثما: فــيم

كنا نتكلم؟ فلم ترد. فقط ابتسمت ونظرت بعينين ناعستين لأسفل، وأتت الحمرة علي وجهها ورقبتها وانتقلت السخونة من كفها القابض علي المقشة إلي جسده. كيف تجرأت يداه ــ متجاوزة كل الحدود ــ وأحاطتا بحلق الثوب القديم وقدتاه نصفين ودخل بها مقعده وظل يجوس بوجهه في صدرها ويدس أنفه في إبطيها متتبعا تلك الرائحة الغامضة؟ ومتى تلاشت القيود فصار العدوان التحاما وتعلقت بذراعيه مغمضة فلم يدر من منهما الذي كان يرتعش ومن الذي صدرت عنه كل هذه السخونة وكل هذا الخوار؟ كمن يستيقظ من حلم، لم يصدق حين فتح عينيه في الصباح علي القفلين ببابيها أن تكون قد ذهبت مع أخيه إلي أسوان.

يرتسم هذا المشهد الوحيد في رأسه بحذافيره وتفصيلاته الدقيقة، وسيتعمد فيما بعد أن تكون المرأة التي سيتزوجها بنفس المنظر، وسيظل في عنفوانه وانطلاقه معها كلما لبست جلبابا قديما ونظيفا وفي ذات الوقت ضيقا قليلا، وستظل لسبع سنوات لا تعرف لماذا يمزق حلق ثوبها ويقده نصفين وهي متكأة علي عصا المكنسة وبها حبات العرق علي حافة السلم قبل أن يجذبها إلي حجرة النوم، وكلما تسأله مستغربة لا يجيب.

عائشة التي في أشهر أرقه كان يستدعيها من غيبتها البعيدة علي ذات الفراش فتطاوعه ولا يفارقه طيفها، رجعت عائشة عادية تماما كما يعرفها، وإن ظلت ملامح المشهد متمثلة في رأسه كمشهد ناتئ. تراه فتنزع ثديها من فم سماء وتدخله حتى يمر، وتخفي بشكل وهمي طوق جلبابها ــ إن جمعهما حديث ــ فلا يبين صدرها. تمرض فلا تجعله يفحصها، تكتفي بالشكوى ووصف العلاج دون كشف، وإن زاد المرض فالفحص من فوق الهدوم، وإن رقدت

مرغمة تحت وطأة المرض الشديد فإنه عندئذ يكشف أي جزء في جسمها دون تحفظ، وعند الصدر تحديدا يشعر بالمقاومة، وحركتها اللاإرادية تجذب الهدوم لتحت. ولولا زوجها لما ولدها سماء آخر العنقود حين أقسم ألا تدخل بيته قابلة وأخوه طبيب، وحذرها أن تظل كما في نجلاء تخبئ الألم حتى تنزل البنت وحدها فيحدث النزيف الشديد. ذكرته بأن القابلة التي أقسم عليها هي التي ولدتها مرتين، فصفق الباب:

ـ لكنه لم يكن قد تخرج بعد.

فيما كان الفرق شاسعا بين صدرها الذي في المشهد وصدرها الذي لم تكن تريد أن يضع سماعته عليه، تساءل في نفسه إن كانت هي التي في المشهد أم عائشة أخرى، ولمئات المرات سيظل يحسب لعله يخطئ المدة بين المشهد وسفرها إلي أسوان ومولد الولد، لكنه سيجدها ولمئات المرات تسعة أشهر بالتمام والكمال، وسيظل كلما رأى ابن عائشة يتساءل في حزن وأرق: ابن من منهما ذلك الولد البكري الذي سارع أخوه وأطلق عليه اسم الأب؟

انزرع اسم وانخلع اسم، جاء أبوه ومات أبوه، ربما كانت ذات اللحظة، وربما كان المتسبب في الوفاة هو نفسه المتسبب في الميلاد. كأنما انطفأت الشهوة بعد هذه اللحظة تماما، عادت عائشة إلي وضعها القديم، وإن لم يغب وضع المقشة والثوب القديم، ولم يفارقه مشهد القد حتى وهو مشغول بالدراسة أكثر من أي وقت مضي.

ـ ذنبي ثقيل يا شيخي.. لا تمحوه مغفرة

ـ ذنبك الذي تقصده محوناه بإذنه..ألم أقل لك؟

ـ كيف.. أريد أن أفهم؟

ـــ ألم أقم عليك الحد؟

ـــ لا..

ـــ والمائة جلدة التي ضربها لك أبوك؟

ـــ معقولة؟

أجهد ذهنه في التذكر. اعترض على أخيه لأنه جاء من أسوان وحده بدون عائشة، فسحب أبوه الزخمة الجلد ـــ لا يذكر من أين ـــ ولسعه مرتين كي يتكلم بشكل لائق عندما يتكلم مع أخيه الأكبر. وبدا كأنه سيكتفي، لولا أنه لم يرد، وزادت نظراته النارية حنق أبيه الذي اعتبر صمته استهانة، ونظراته متبجحة، فظل يضرب بسرعة وبقسوة وجنون وهو يلهث غير أنه لم يفتح فمه ربما من المفاجأة، كأن الضرب في أحد آخر. كان يضرب كأنه ينتظر ثورته ـــ التي لم تحدث ـــ حتى يبرر ضربه العنيف. يحوشه الناس فيضرب بقسوة وسرعة. ولما تركوه وتراجعوا، خفت ذراعه حتى بطأت تماما، ثم نهنه كطفل صغير راميا العصا بالسير الجلدي، وأخذه بالحضن:

ـــ يا بني انطق.. قل كفاية.. قل خلاص.. قل أنا بريء.

عندئذ فقط بكي، ليذهب الأب إلي عمله في اليوم التالي مضطربا، تؤلمه ذراعه اليمني، فيفتح بنفس الذراع سكة المخزن للقطار الطوالي بسرعته.

ـــ أكنت معي؟

ـــ ومن تراه الذي كان يضرب؟

ـــ وابن عائشة؟

ـــ إنه ليس من أهلك.

استراح. كان مشهد قد الثوب في رأسه ما يــزال يؤرقــه. الآن زال عنه الهم. سبحانه غفار الذنوب، يغفر لمن يشاء، ويعــذب مــن يشاء. رحمته أوسع من غضبه. وهو أرحم الراحمين. يقبل التوبــة عن عباده. طلب أن يقصد وجهه وألا يفكر في سواه وأمره بصوت حان:

ــ اتق الله حق تقاته.

هل يكون الأمر فوق استطاعته. أن يذكره فلا ينساه وأن يشكره فلا يكفره، وأن يطيعه فلا يعصاه. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. لــم يرد انتظارا للتخفيف، فقال شيخه بلوم:

ــ اتق الله ما استطعت.

لم يرفض ولم يقبل. هل يتعهد بوعد سيكون الإخلال بــه ذنبــا عظيما. لم يرد منتظرا التخفيف. أخرج سيفه من غمده وزعق:

ــ اتقوا الله ويعلمكم الله.

هل كان يقصده هو؟ لم يعرف بماذا يــرد. هــل يقــول ســمعا وطاعة؟ كان قد أخرج سيفه ورفعه كأنه سيجربه في الهــواء، قــال بسم الله، وهوى به مرة واحدة علي رقبته، فــصرخ وهــوى إلــي الأرض. لم يمت بعد ضربة السيف. لم يمت. كان ما يزال يــشعر، وكانت به حياة. سمعه يردد:

وأقتل باسم الله في الصب نفسه   فيحيا حياة الصالحين بقتلتي

قال: قم، فقام طائعا. كان ما يزال يشعر حين سمعه يأمره بحزم: اتق الله حق تقاته، فأومأ صاغرا. طوح السيف في الهواء باتجاهــه فتلقاه بحذر. اندهش. كان سيفا من ورق وكان يشعر تمامــا كأنــه مذبوح، فأخبره أنه ما قتل منه بالسيف سوى نفسه الــضعيفة التــي

حدثته في المرة الأولى، وماطلت في الثانية. وتعامت في الثالثة. تساءل كيف عرف ما بنفسه، فقال:

ــ الظاهر مرآة الباطن.

لم يندهش من طول المدة وهو يرد علي أسئلة اللجنة بصراحة غريبة. يقول ما يعلمه وما يشعر به، كأنه يواجه نفسه. لا يعنيه اندهاشهم ــ وهم يتناوبون إلقاء الأسئلة وينصتون جميعا للإجابة ــ ولا انصراف الزملاء من أمام اللجان الأخرى، حتى نظر رئيس اللجنة في ساعته وقطب حاجبيه وتبادل النظر مع الأعضاء ثم أومأ له بكفه المفرودة لأسفل فتوقف عن الكلام، وبإشارة أخرى جافة من نفس الكف المنبسطة لأعلى انصرف.

كانت الصور المعلقة علي تابلوهات خشبية في الصالة وغرفة المكتب وغرفة الولادة كلها لنساء يبتسمن وفي أحضانهن مواليدهن، وكانت تبدو كأنها التقطت بتلقائية، إذ بدت الابتسامات عريضة ووضعت الأكف بعفوية أمام أفواه مفتوحة أو مضمومة خجلا من مفاجأة اللحظة. تلك اللحظة التي يتقن أنفسهن فيما بعد للعودة إلي العيادة للتفرج عليها، واستعادتها منذ التقطت لهن عقب الولادة، أو خلال فترة النفاس وهن يخرجن أثداءهن ويبتسمن لأطفال بلا ملامح

كأرانب صغيرة، وكن ــ رغم الأسماء الأولي فقط لهــن والأســماء الثلاثية للمواليد ــ يبدون كأمهات مختلفات لطفل واحد.

كان يتعمد التقاط الصور في هذه المرحلة الانتقالية، حيث يلحــن منسدلات الشعر بأطواق أثوابهن الواسعة التي تشي بأنهن مقــبلات علي رضاعة طبيعية، ونظراتهن الفرحة والمقبلــة علــي الحيــاة، بهرمونات الأنوثة المفرطة التي لم تكن قد عادت لطبيعتهــا بعــد، والتي تمنحهن سحرا وجاذبية وتجعلهن كأبقار حانية وهن يــتطلعن إلي الكاميرا ببراءة ويحضن أطفالهن. كان يتعمد تسجيل هذه اللحظة تحديدا دون أن يدور بخلده أن العيادة ستتحول إلي أرشيف أو ألبــوم كبير للذكريات، وأنهن سيقفن مشدوهات أمام هذه التابلوهات، ولــن يتحركن قبل أن تنبثق دموعهن أو تنفرج ابتساماتهن.

هل جاءت إلي هنا كي توضع ضمن ألبوم كبير لأمهات بأطفــال يرتدون ذات الملامح وذات الملابس؟ فقد كان يصر علي ألا يخرج الطفل المولود من العيادة إلا وقد ارتدى ملابسه الأولي المكونة مــن فانلة بيضاء داخلية، وجلباب أصفر أو لبني مفتوح من الخلف بوردة حمراء علي الصدر وقماط للسرة وطرطور أسود من التل. يــشتري الملابس بنفسه جملة من سوق الإثنين، وتوزعها نازك في أكيــاس منفصلة وتضع ورقة بخمسة جنيهات جديدة في جيب كــل مولــود، نقوطا حتى قبل أن يأخذ أجره. بإيماءة بسيطة منه، تعد نازك للوالدة كوبا من الحلبة الدافئة، تليها في فترة الملاحظة والتي تمتد لساعتين بعد الولادة وجبة من ربع دجاجة وطبقين من أرز وخضار. بانتهاء فترة الملاحظة يزول الخطر ويعود الارتياح إلي الوجوه، فيتحــول الهمس إلي ثرثرة، وتتداخل القبلات المهنئــة مــع بكــاء المولــود ومناغاته، ويبلغ الصخب منتهاه حين ترن الزغاريــد فــي أرجــاء

الحجرة التي لم تكن سوى ساحة للصراخ منذ قليل. في هذه اللحظـــة تحديدا ودون أن ينتبه أحد يضيء فلاش الكاميرا ليثبت اللحظة.

ثمة أسباب كانت تجعلهن يعدن إلـــي العيـــادة قبـــل الأربعـــين، ليستعملن وسيلة لتنظيم الأسرة، أو للكشف علي الطفـــل أو ختانــــه، لكنهن في أحيان كثيرة كن يجئن خصيصا للتفرج علي هذا الألبـــوم، وكان يجد صعوبة كبيرة في تذكرهن بعـــد الأربعـــين وقـــد عـــدن جميلات ورشيقات كما كن قبل الحمل.

بينما كانت تمر علي التابلوهات الخشبية، في الـــصالة والمكتـــب وغرفة الاستراحة، كانت في الحقيقة تمضي الوقـــت بعيـــدا عـــن السرير المقبض، والمحاليل. أمضت الوقت في تفقد الصور وقـــراءة الأسماء، تعرفت علي القليلات من بين ألـــف وثلاثمائـــة وخمـــس وثلاثين صورة، بدا كأن العيادة قد امتلأت، وكأنه لا مكان لها هنـــا. بحثت عن عزيزة ونهلة، فلم تجدهما، فارتمت علي السرير، خائفـــة تحدق في باب حجرة بسريرين، أحدهما للنـــوم، مفـــروش بمـــلاءة وكوفرتة، والآخر طبي للولادة، مقبض ومخيف، علي رأسه زجاجة جلوكوز يتدلى منها حبل وريدي بلاستيك معقود كمشنقة. بـــالحجرة أطباق ممتلئة بالمطهر وأطباق فارغة، وترابيزة عليها آلات وقطـــن وشاش، ودولاب زجاجي تطل منه آلات أخرى وأدوية ومستلزمات. ثمة أشباح لنهلة وعزيزة تتقافز في الأركان وتصرخ، كأنها غرفـــة للقتل، وهي تنزوي في الجانب البعيد من السرير بغرفـــة لا يخفـــف من الانقباض بها سوى جريد النخل المطل من الـــشباك المفتـــوح، وبوستر علي الحائط المقابل لنخيل مثمر يميل علي مياه زرقاء.

في الجانب البعيد من السرير كانت تغمض عينيها كأنما تتجاهـــل الحجرة بكامل محتوياتها، وتتمنى وهي تتحسس الجانب الآخر مـــن

السرير لو تنتابها إغفاءة فتعثر علي مكان راشد مطبوعا علي السرير بانخفاضات جسمه وفقرتيه المكسورتين، كأنه قام لتوه متنقلا بين الحجرات، يفتح كتبا ويصنع قهوة ويدخن سجائر، ثم يخرج إلي الفناء ليتأكد من وجود الحصان ويجلس علي المصطبة خلف البوابة محدقا في النجوم، يتسمع شخير أبيه عبد المجيد المنتظم، ولا يفطن إلي توقفه إلا بعد أن ينفتح الباب ويفاجأ به واقفا أمامه يسأله ما الذي أيقظه في هذا التوقيت؟ ويدفعها خلو مكانه في السرير وصهيل الحصان إلي القيام من السرير، والخروج مرة واحدة إلي الفناء، فتزول الكوابيس والأحلام السيئة ويزول الرعب. يعرف عبد المجيد منذ زمن أن لهذه الحجرة ريحا ثقيلا وكوابيس مزعجة لا تزول إلا بالخروج إلي هذا الفناء، لذلك فإنه يسارع بفتح باب حجرتهما ويشخط في العفاريت وهو يحدق في أركانها مهوشا بيده التي بها العصا كأنه يطرد الكتاكيت باتجاه الباب، ثم يشير ــ كأنه اكتشف سبب الكوابيس ــ إلي أنهما ليسا ميتين حتى يناما هكذا ورأساهما باتجاه القبلة، وأنه حذرهما أكثر من مرة ــ متى غربت الشمس وأظلمت الدنيا ــ من الكنس والخياطة ودلق المياه الساخنة في الحمام، أو الالتقاء بالجنازات أو الالتفات إلي النداء من الخلف، والمشي في ساعة الجمعة علي قشر الثوم والبصل والبيض. يحدقان فيه بصمت فيأمرهما بلبس ملابسهما الداخلية بالمقلوب ويحذرهما من عدل فردة الشبشب المقلوبة ويغلق عليهما الباب فينامان حتى عصر اليوم التالي. كان الأرق يزيد في غياب راشد، فلا تستطيع الدخول إلي الحجرة، تقضي الليل كاملا في الفناء، يشعر عبد المجيد بذلك حين يراها تشعل النار وتصنع الشاي وتسمع الحكايات، وحين تتهيأ للنوم فإنه يمد لها فخذه لتنام عليه كطفلة في الفناء.

تحسست مكانه في السرير فلم تجده، فتحت عينيها علي محتويات الغرفة: سرير ومحاليل وآلات وأربطة شـاش وقطـن. كمـا فـي الكوابيس السابقة كانت أنفاسها تختنق، وكانت لـديها القـدرة علـي التحمل حتى تفتح عينيها وتقوم إلي الباب وتفتحه، فتجد عبد المجيـد بالفناء، فيربت فخذه ويشير إليها مبتـسما إذ يعلـم مـن خروجهـا المفاجئ ما كانت تعانيه، لتذهب إليه في ارتياح مغمـضة العينـين وتكمل النوم علي ساقه، لكنها طوال هذا الكابوس كانت تعي أن عبد المجيد الذي ينقذها في كل مرة قد مـات، فـصرخت بعـدما رأت عيناها محتويات الغرفة بصوت فزع:

ــ يا راشد!

لم تعد بنها قرية ولم تصبح مدينة، منذ نتأت بين الدور الطينيـة والبهائم المربوطة في الحقول بيوت من طوب أحمـر دون طـلاء، ونبتت كما في المشاتل بعض العمارات الملونـة افتتحـت أسـفلها محلات العصير والمطاعم واستوديوهات التصوير ومحلات الديكور والملابـس الجـاهزة والحلويـات والبقالـة وصـالونات الحلاقـة وكوافيرات النساء، وازدحم علي مزلقان الرياح التوفيقي باعة الجبن والسمن والطيور والأسماك الـصاحية والفاكهـة، وعلـي طـول الرصيف المحاذي لشريط القطار افترش الباعة بالملابس المستعملة والإسكافية بالأحذية والبلغ القديمة المركب لها نصف نعل والمرقعة بلوزات جلدية صغيرة، وباعة الكيزان الصاج والأطبـاق وأكـواب الشاي ولمبات الجاز والمحالب والمتارد الفخارية والقرب والأوتـاد والفئوس والمقشات والقحوف وصدريات الـدمور وألبـسة البفـت وطواقي الصوف ووبر الجمال، وطلمبات المياه الجوفيـة وسـروج

الأحصنة والبرادع والألجمة والحدوات والحبال التيل والشنف والغبطان وأحمال الجمال والمفاتيح والكوالين الحدادي والجلة والعيش الملدن والرقاق والكسكسي والبرغل والشعرية البلدي.

لم تعد قرية ولم تصبح مدينة. قال راشد لنفسه وهو يعبر النفق كتائه فيواجهه تمثال سعد الذي ظل راقدا لشهر كامل علي تراب الشارع الذي رصف فيما بعد وأطلق عليه اسمه، قبل أن تثبته الحكومة علي قاعدته، فيمد ذراعيه علي شيء أمامه كأنه جوال، يحدق في البعيد بقسوة رجل غامض من البرونز المغبر بالأتربة والدخان ويشير بيديه، فيبكي المارة من الأطفال ويتسمرون بالأرض ويتبولون علي أنفسهم من فرط الرعب الذي يسببه لهم سعد باشا الواقف مستندا علي جوال يجمع فيه الأطفال ولا يمتلئ. مدينة وفي القلب قرية، حتى ولو بنت الحكومة عمارات الأوقاف وأجرت أدوارها السفلي محلات، وجعلت الساحات بين العمارات سوقا للخضار والفاكهة وحلقة للأسماك، وافتتحت علي سعد زغلول صيدناوى وبيع المصنوعات ومبني للبريد ومحلات الكساء الشعبي. مدينة وفي الأصل قرية، نمت بشكل سرطاني وعشوائي. ذهب الجمال وبقي البطء والكسل والرتابة. لم تفلح في تغييرها المدارس والكليات التي أوشكت أن تكمل جامعة ولا هذا العدد من الجرائد والكتب.

اجتاز الشارع، وميدان سعد، وكلما اقترب من البيت تسارعت دقات قلبه. كانت النسوة يقابلنه بهدومهن السوداء ويحدقن فيه ويتهامسن، والرجال بوجوههم الصارمة والحزينة يتناقلون عبارات العزاء، وخرج من ناصية الشارع جمعة أبو الجود، يتبعه إبراهيم عجورة. داهمه هاجس بأن مكروها حدث أو سيحدث. عند بوابة

الفناء المغلقة، كاد يسقط لولا أن برز له محمد البيه واحتضنه طويلا علي غير العادة، وقبل أن يفلته من حضنه نظر له من أسفل وقـــال: شد حيلك ما تزعلش من قتل يقتل ولو بعد حين. ثم تركه. لم يعرف فيمن يشد حيله، أبيه أم زوجته، قابل زيزي فسألها عمن مات اليوم، فقالت: إمام الفنجري. تنفس بارتياح وسألها لمـــاذا البوابـــة مغلقـــة فقالت: تانت أروى عند أندراوز. انتابــه القلــق، فاجتــاز ســوق الخضار إلي شارع المديرية، انحرف يسارا فبدت عمارة أنـــدراوز مختبئة بين العمارات العالية. كانت أوراق الجريدة تتساقط من بـــين يديه ونعمات تلمها خلفه وتشير إلي فوق. لم يكن منتبها إلـــي أنـــه يصعد السلم الذي هرول عليه أندراوز خلف أبيه بالجفت، ولـــولا أن هبط أبوه السلم بسرعة لفعلها الحكيم أندراوز وشج رأســـه بالجفـــت عندما ظل يعيد ويزيد في وصف حالتـــه دون أن يـــدرك أن حلـــم أندراوز قد انتهى وهو ينبهه إلي أنه أخذ أكثر من وقته، وأنه اعتدى بذلك علي وقت المرضى الآخرين فيقول عبد المجيد: يـــا مـــستعجل عطلك الله. يا حبيبي خش في الموضوع. صبرك يا حكيم باشا، كل واحد له نبي يصلي عليه. خللي بالك ــ لا مؤاخذة ــ طويل وانـــا جاي لك في الكلام. ولما اكتشف أندراوز أنه مـــصمم علـــي بـــدء الشكوى تحديدا من تلك اللحظة البعيدة التي خدعـــه فيهـــا وحقنـــه بالمخدر ولم يقطع من كتفه كما طلب نصف كيلو لحم لولده راشـــد. انطوت شكواه علي العتاب الحار أكثر من عرض آلامه، وكلما نبهه كان يعود فيستأنف الشكوى من المنطقة التي أوقفـــه عنـــدها. خلـــع معطفه بعصبية عندما تبين أنه لن ينتهي فيما لو تركه يحكي، وكتب العلاج بسرعة ورمى الروشتة في وجهه:

ــ بلاش شغل الجنان ده يا فلاح.

صمت عبد المجيد فجأة، وقام معتذرا عن الإطالة، فلبس أندراوز المعطف مرة أخرى. أثنى وهو باتجاه الباب على علمه وأخلاقه وذوقه وأدبه وتحمله لهموم المرضى، وفيما بدا أنه قبول للاعتذار، غير أندراوز من نبرته، وقال إن من حقه عليه أن يسمعه لكن وقت المرضى الآخرين ليس ملكه كما يعرف. أشعرت إيماءة عبد المجيد المنكسرة أندراوز بالحرج لأنه احتد بشكل لا يليق على مريض ولم يكن يصح، فقام خلفه حتى الباب يربت كتفه، مما شجع عبد المجيد على الاستدراك بخبث:

ــ بس في حاجة صغيرة جدا تنقصك يا حكيم باشا.

وللمزيد من الترضية، نظر إليه أندراوز باهتمام منتظرا أن يذكر هذه الحاجة الناقصة، فتردد كأنه خائف غير أن الحكيم باشا شجعه، فمال عبد المجيد على أذنه ــ وعيناه تنظران إلي المرضى الجالسين في الصالة ــ وقال بصوت عال:

ــ تنطق الشهادة!

ضج المرضى بالضحك، فسحب الجفت من على المكتب، وهرول خلفه على السلم لولا أنه أسرع خشية أن يفعلها أندراوز ويفتح رأسه.

وكما تناقل العاملون في معصرة أبي سرج ومحلج العطار ووابور الثلج إسهامات الحكيم أندراوز في إنشاء المدارس والملاجئ وعلاج الفقراء في عيادته وتبنيه برامج غير تقليدية لمكافحة الأوبئة والأمراض المتوطنة، فإنهم لم ينسوا نوادره مع عبد المجيد، فيضحكون حتى تدمع أعينهم، ويطلبون له الرحمة، ولا يستبعدون أن يكون أندراوز قد نطقها بالفعل ولو في السر، ومن ثم كانت مطاردته لعبد المجيد بالجفت لعدم إثارة القلق، خاصة أنه كان يعامل

المسلمين بمودة، ويحفظ آيات كثيرة، وصلت أحيانـــا إلـــي نـــصف القرآن، حتى قيل إنه رد الشيخ إبراهيم عجورة وجمعة أبـــو الجـــود وهما يرتلان سور مريم وهود والنمل، ودائما ما يخلصون في نهاية الجلسات إلي أنه ــ والعلم عند الله ــ رجل صـــالح اجتمـــع علـــي وداعه الكثير من أهل المدينة والفلاحـــون مـــن القـــرى بـــالطواقي والجلابيب البلدي علي الدواب وإن ظل لغزا محيرا حتى في مقبرته التي أقيمت على أرض محايدة.

هبت رائحة برتقال بعنف فالتفتت. رأته قادما في بهاء يدفع باب الحجرة. سرت قشعريرة في ثدييها فاعتراها الاحمـــرار والخجـــل. ضمتهما بساعديها كما كانت تحتـــضن كتـــب المدرســـة وحاولـــت النهوض من السرير فلم تستطع. انحنى علي كفها يلثمه، فانتقل إليها الدفء وشعرت بثدييها يتفتحان واللبن في عروقهما يسعى للخروج. نفس القشعريرة التي ســـرت فـــي جـــسدها وهـــم يـــسندون إليهـــا الميكروفون، دون أن تعرف اسمه لتطلب منه الخروج أو إعلان ما يريد، متعجبة من هذا اليقين الذي كان يـــساورها بأنـــه سيـــستجيب لندائها، هي التي لم تكن علاقتها به قد تجاوزت اليوم الواحد، قبـــل أن يقتحم القناصة ورجال مكافحة الشغب والقوات الخاصة المجلـــس ذي الطابقين، يحيطهم كردون من القوات، وتسد العربات المـــصفحة مداخل المدينة لتمنع تقدم الناس من طريق الكـــورنيش أو الـــشوارع الصغيرة المتفرعة منه باتجاه شارع سوق الخضار:

ــ اخرج من أجلي أرجوك..

نفس القشعريرة وحشرجة الكلام ورائحة البرتقال التـــي ســـرت بخلاياها فتلعثمت ولم تستطع أن تكمل. أطفئـــت الأنـــوار وانطلـــق الرصاص من جميع الاتجاهات نحو الشبابيك والمنـــاور، وغطـــت

القنابل المسيلة للدموع علي رائحة البرتقال، واستمرت دفعات الرصاص لمدة تزيد على ربع الساعة حتى امتلأ المكان بالبارود المحترق وامتلأت الصحف بمحللين يفرقون بين البطولة والجريمة، وأطباء نفسيين يشرحون عدم القدرة علي التآلف والتكيف والاضطراب النفسي، وأجمع المحامون – بعد أن حولته المحكمة للمصحة النفسية بعد علاجه بقسم العظام والأعصاب بالدمرداش – على أن الحدث في حد ذاته بطولة، غير أن فارق التوقيت لم يكن في صالحه.

ظل مائلا عليها بجسده يلثم يديها ويبكي:

– كيف حالك؟

بيدها التي يلثمها قربت يديه من بطنها ودمعت:

– كما ترى ..أنتظر.

كان صوتها متهدجا، كأنها خائفة. أخذ كفها نحو صدره بحنان:

– قلبي معك.

صرخة طويلة. غليظة. جحوظ في العينين وجرش علي الأسنان وذهول. كشخص يعدم علي كرسي كهربائي. صرخة تجاهلت – بخلاف الصرخات الحادة السابقة – تعليماته بالحذق لأسفل، في نفس واحد غير منقطع وكتم الصوت، وتوسيط الجسم بلا ميل إلي اليمين أو الشمال، وفتح الساقين قدر المستطاع كي تخرج الرأس. "برافو.. طلقة أقوى". خلص الرأس ولفها، فاعتدل الكتفان باتجاه الخروج. مال بالرأس لأسفل فخرج الكتف الأعلى. عاد بالرأس لأعلي فخرج الكتف الأسفل، وانزلق الجذع والبطن، وقبل أن تفلت الرجلان كانت يداه تكبلهما وترفع المولود مقلوبا ومدلى في الهواء.

بنت. ضرب ضرب. صرخت. انتصر راشد، كان يريدها بنتا جميلة. ابتسمت في إعياء. كانت تراه في أحلامها ولدا.

ـ أروي!

كانت صامتة كأنها ستنام. بدا الجزع في ندائه. المفترض أن تشعر بالراحة بعد أن راحت آلام الولادة، لا أن تكون رخوة هكذا كمن ترغب في نوم عميق. فصل المشيمة عن الرحم يتبعه صرخة تقترب من صرخة الرأس، لكنها انكمشت فقط كأنما من البرد وبإعياء لا يتناسب مع ما تشعر به من ألم قالت بصوت غير مفهوم:

ـ غطيني.

لم يعتد فقدان التواصل بعد الولادة بهذه الدرجة، والوالدة ينتابها صحو مفاجئ، وابتسامة مجهدة، ربما ينتابها استرخاء المتعب، لا هذا النوم المفاجئ. خطأ ما لابد حدث. اطمأن أولا على النبض. سريع وخافت. يسرع عادة بعد الولادة، لكنه يسرع أيضا مع النزيف الشديد. تراجع عن غسل يديه حين بدا غير مستريح. خلع قفازيه ليقيس الضغط.

ـ أشرب.

حجر ثقيل ضغط على صدره، حين رآها تلوك لسانها الجاف في حلقها، وتبلل بريقها الجاف شفتيها. قاس الضغط فتلوث ذراعها المرتخي بالدم وتلوثت أذنه. لم يتمكن من قياسه بشكل دقيق. لا تهم الدقة الآن بقدر ما يهمه أن يعرف ما إذا كانت سرعة النبض من إرهاق الولادة أم من نزيف حقيقي. منخفض لكنه معقول. أيكون السبب كتلة الدم المتخثر التي أعقبت انفصال المشيمة؟ بدأ يشعر بالقلق الحقيقي حين ضغط الرحم من أسفل البطن، وكان الدم ما زال ينزل. أروي؟ يضغط أكثر فيتوقف قليلا ثم يواصل النزول. علق

الجلوكوز، ثم لبنات الرينجر. أيهما أجدى، أن يتشاءم فيثبت كانيولا أخري قبل اختفاء الأوردة لتعليق محلول الملح في الذراع الأخرى لأنه بعد قليل قد لا يتمكن إلا بالفتح جراحيا علي وريد، أم يتفاءل ويستمر في الإجراءات الأولية لوقف النزيف؟

ضغط الرحم وجفف الدم واستكشف قناة الولادة بكاملها من أسفل حتى عنق الرحم فوجدها سليمة. لا تمزق يستدعي خياطة فمن أين ينزل الدم؟ أروي؟ ازداد ثقل الحجر واستشعر فداحة الخطر حين اكتشف أنه وحيد، لا يملك سوى يدين، ليعلق في وقت واحد المحاليل، ويضغط الرحم ويدلكه، ويطمئن علي الضغط كل خمس دقائق ويستكشف مرة أخري الوضع من أسفل، ويتعامل مع النزيف بكسر الأمبولات وحقنها في المحلول. لكن التدهور بدا سريعا وغير متوقع ويتطلب دما طازجا.

لو كان في المستشفي لاستنفر كل شيء في لحظة: يأمر فتثبت الكانيولا وتعلق المحاليل. يصرخ بكيس دم، فتؤخذ عينة دم ويجري اختبار توافق وتعرف الفصيلة ويصرف الدم ويعلق. يقول: تخدير، فتحضر غرفة العمليات حالما يستدعي طبيب التخدير، وتنتشر حوله الممرضات والشغالات. لكنه في العيادة. وحدث ما خشي حدوثه، فبأي شيء يبدأ وكيف يفكر بشكل منظم؟

ــ ما الذي يحدث بالضبط؟

لم يكن متفرغا للرد علي راشد. والذي يحدث بالضبط لا يعرفه حقيقة. إنما تتركز مخاوفه من نزيف بعد الولادة، الذي تبدأ أسبابه الخمسة عشر بتهتك بسيط في المهبل لحظة خروج الرأس، وتنتهي بانفجار الرحم. ويتراوح وقف النزيف من مجرد تدليك الرحم من البطن بيد واحدة، أو أخذ غرزة واحدة في قطع صغير، أو حشو إلي

استئصال الرحم بالكامل كي يتوقف فقط النزيف. وأحيانا يا راشد لا يقف.

ــ لماذا لا ترد؟ ..هل أساعدك في شيء؟

لم يعرف راشد الذي كان يهتم بأشياء هامشية كتغطية زوجته، أو تنظيف المولود الذي اكتشف منذ قليل أنه أنثى من الـــدم ومخلفـــات البطن وتلاوة الأذان في أذنها، أو الرأفة في ضربها علـــي ظهرهـــا وهي معلقة من ساقيها كي تنتبه وتتنفس وتصرخ، لـــم يعـــرف أن وجوده في الحجرة ولو بصمت يمثل إعاقة، وأنه لـــيس بوســـعه أن يساعده حتى في طلب سيارة الإسعاف، لأنه سيـــسأله عـــن الـــرقم، وسيطلب، وسينتظر أن يرد عليه مركز الإسعاف، ولن تسعفه اللغـــة والكلام فيكثف الطلب والتشخيص للجالس علي الطرف الآخر مـــن الخط، ليكتب في دفتره اسم المبلغ واسم الحالة والتشخيص والعنوان وأقرب الطرق للوصول إليه، ثم يقول أو لا يقول: شـــكرا، ويـــضع السماعة، ليرد مرة أخري علي اتصال مركز الإسعاف الذي يتأكـــد من نمرة المبلغ وجديته. وإلي أن يطلب راشد الإسعاف تكون الحالة قد تدهورت بشكل مريع.

راودته فكرة الإسعاف لكنه أحجم عنها. لا يمكـــن الـــسير فـــي اتجاهين في وقت واحد. لابد من قرار وإن كانـــت كـــل الخيـــارات سيئة. اختار التعامل مع النزيف، خشية أن يضيع الوقـــت وأمـــلا ــ كما يحدث كثيرا ــ في أن يتوقف النزيف وحده دون سبب طبـــي معلوم سوى رغبة هذا الجسد في الحياة، وقد لا يتوقف النزيف رغم جميع الإجراءات ونزوله بملابـــس الـــولادة دون نقـــود أو هويـــة باعتباره الوحيد الذي لا يصح أن يفارق الحالة، فلا يـــضيع الوقـــت ويباشرها في الطريق باعتباره أعلم المرافقين بـــإجراءات الـــدخول،

حيث يدفع بالحالة رأسا إلي العمليات في أقصر وقـت ربمـا دون تذكرة ومع ذلك قد لا يتوقف النزيف لا لسبب طبي معـروف إنمـا لرغبة الجسد الذي ينزف في الموت.

ازرقت أروى الصغيرة. جأر من أعماقه: يا رب. وثقل الحجـر على صدره كاد يقضي عليه. أطباء الولادة هم أقصر الأطباء عمرا علي وجه العموم باستثناء من يعتزل المهنة قبل الأربعـين، يلـيهم أطباء التخدير الذين ينحصر توترهم علي أول لحظـات التخـدير، والتي ما إن تمر بسلام، يزول التوتر طوال العملية. لماذا يتذكر هذه الإحصائية الآن؟ ولماذا تأتيه نهلة عبد الواحد؟ جذب المولودة وكرر شفط المخاط من فمها، كي يتيح للهـواء الـدخول إلـي الـصدر، فاحمرت. عاد إلي الأم: أروي! وجد النزيف حنفية مفتوحـة. حقـن وحشو وضغط وتدليك: أروي! قطن. شاش. محاليـل. مـن يغيـر الطبق الكبير أسفل السرير الذي امتلأ بالدم والقطن بـشكل مريـع. الصغيرة ازرقت يا دكتور. كان يبحث عن وريد في يد أروي. ترك ذراعها ونظر إلي الصغيرة. عادت إلي الزرقان وكرشة النفس. أمر راشد بنقلها إلي حضانة الأطفال المبتسرين. خطاب تحويـل؟ هـل الوقت يسمح بمسك قلم؟ أمسك بذراع أروي يبحث عن وريد آخـر. أروى!

هذا طريق لا تعرفه، ولا تجدي فيه أقـوال مـن مـروا. تتـوه وتصحو. لا تسمع حتى صوتها. فقط دم ينساب منها ولا أحد يفهـم إشاراتها. من أين يأتي جفاف الحلق الـشديد؟ الـدنيا غائمـة أمـام عينيها. أمعاؤها كأنها تخرج من أسفل. لا تريد سـوى أن تـشرب. كأن أحدا يقبلها. كأن طفلا يبكي. عطش شديد وظمـأ لا يرتـوي.

غيوم مرة أخرى وإظلام كامل ولا جريد نخل عاليـا. مـن أغلـق النافذة؟ تهبط لأسفل كأنها تغوص، فلا دكتور ولا راشـد. كـستارة ثقيلة أغلقت. الأصوات البعيدة خفتت تماما. لمسات باردة لهواء حاد وبارد كلما مرق السرير بها كحصان.

ربوتان عاليتان. بينهما هوة سحيقة. تيه. والحـصان البنـي ذو القوائم البيضاء الذي استراح، جمح في حقول من ليمون ومروج من نخيل. قدماها مثبتتان بالسرج ويـداها ممـسكتان باللجـام خـشية السقوط. خلفها علي الدين، خادم الملك. لاحت البوابة التي لفظتهمـا، والحراس الذين رفعوا أسلحتهم للتحية يبدون غاية في الوضوح، ولم يكن عليها سوى أن تلوح لاثني عشر ألفا ومائتين وخمس وعشرين من الوصيفات والحريم، وستة آلاف غلام يقفون في شرفات القصر، يتبعها علي المنحدر موسيقى ريفية وألوان صاخبة لـصبية بطـواق كورود بيضاء وبنات بفساتين كنوار تفتح. لم تكن بهـا رغبـة لأن تحصي كم من الوقت مر والحصان البني يجري بهـا وسـط هـذه المروج، ولا كم من الزمن مر حتى تقترب من هذا القـصر لتـرى الشمس ساطعة علي التفاحات الذهبية الثلاث، ويتحطم الباب الـذي سد بالطوب بعد خروجها منه لأول مرة، ويتناثر الطوب فـي كـل اتجاه، فتنفتح البوابة الكبيرة التي أعلاها برج وسارية بثلاث تفاحات ذهبية، وتبين الطرق الجانبية مدرجة بالأشجار، والدرجات الحجرية المؤدية إلي الحمامات الملكية، وتصرخ في فرح حين تـراه: عبـد المجيد الصعلوك .. مضحك الملوك؟ فيحني رأسه ويبتسم، ويعـرف الحصان وحده طريقه نحو بهو الريحان، والبركـة، ثـم الأجنحـة الملكية، وبهو السفراء وساحة السرو وقاعة الأختين وفناء الأسـود بنافورته المرمر التي يحمل حوضها اثنا عشر أسدا من رخام أبيض

في دائرة. يجوس الحصان داخل الأبهاء الملوكية الفخمة، فتقرأ في كل ركن من أركانها سورة الملك منقوشة بكاملها.

ــ خليك مع الحالة يا دكتور.

جاءته الأوامر. صعد سلمات الهليكوبتر مرة أخري وظل برفقة الحالة. ضابط صف ينظف طائرة رابضة في دشمة، لمست يده ــ دون أن ينتبه ــ مزلاج النجاة أسفل الكرسي، فانفلت الياي، وانطلق المقعد به لأعلي. ارتطم بالسقف الزجاجي المغلق للطائرة الحربية فتهشم واصطدم بسقف الدشمة الخرسانية وارتد إلي الأرض فتهشمت عظامه. أمام استقبال مستشفى الجامعة، جاءته إشارة ليتجه بسيارة الإسعاف إلي الاستاد، في انتظار هبوط الهليكوبتر. سلم الحالة وفي منتصف سلم الطائرة، جاءه الأمر فلم يعرف إن كان أمرا باللاسلكي، أو أنه صوت مسعفي الطائرة، أو كان نداء داخليا صرفا.

صعد الطائرة مرة أخري قلقا كمن نسي شيئا، وأغلق الباب. كان يطمئن بين الحين والآخر عليه، يسعفه بالمحاليل والمسكنات والمهدئات. في ألماظة كانت سيارة أخري تنتظر لنقل الحالة إلي عبده باشا، المستشفي الفرنساوي. أسعده أن يصل به حيا، وأن تفتح بوابات المستشفي بهذه السرعة، وأن يهتم الموجودون في الاستقبال، فتفرغ حجرات الأشعة، وتبتلع المصاب ردهات وحجرات، حتى وجد دوره ينحسر تماما، يتابع ليس أكثر، يعيد وصف الحادث بصفته طبيب المطار الذي رأى الحادث، كان يرجح أن تكون الإصابة ارتجاجا شديدا أو نزيفا بالمخ مع كسور مضاعفة بالعمود الفقري والساقين. قالوا: شكرا، فخرج.

قبل البوابة بقليل اكتشف نفسه بالبالطو الأبيض المكرمش علـــي فانلة داخلية، وبنطلون زيتي وشبشب ميري، منذ خرج مـــن عيـــادة المطار، لا هوية ولا نقود. تجول بالمستشفي مرة أخـــرى ليتعـــرف علي أحد الزملاء، فلم يجد. وقف حائرا حتى رأى الرجل النازل من الباب الأمامي للأتوبيس يقول كأنه يذكره: السيدة؟ فصعد من البـــاب الخلفي. تذاكر. آثر الصمت علي شرح ما حـــدث. تـــذاكر. تفـــادى نظرات الركاب الذين كانوا يوسعون المكان له كمختل. تذاكر! وقف صامتا، ذراعاه علي صدره، كأنه نوى للصلاة، تتأمل عينـــاه الـــذين يصعدون. تذاكر يابهوات هناك. ضايقه الصوت. صـــار الأتـــوبيس كتلة مضغوطة من البشر، فلم يعد ثمة صعود ولا نزول، فقط ضغط ودفع وعرق واختناق. تذاكر الأخ بالبالطو. صرخ: من أين يجـــيء هذا الصوت؟ صخب أتبعه سكون. حملق في الرؤوس، فرأى قامات تنحني كما في الركوع. لم يعد غير سكون يقطعـــه صـــوت آمـــر وملحٌّ: اسع. حملق أكثر في السقف وسط هذا الزحـــام. اســـع. رأى نقوشا وزخارف ولمبات مضيئة، وأبيات شعر مكتوبة بالكوفي فـــي سقف القبة الملونة. الأخ بالبالطو.. اسع وصل علي النبـــي. التفـــت عن يمينه، فامتدت يد جاره لتصافحه بحرارة، كأنـــه يودعـــه: مـــع السلامة. التفت عن شماله فوجد ممرض عيادة المطار:

ــ حرما يا دكتور.

صافحه باستغراب، ونظر لجدران مصلي المطار الباهت. غابت ملامح المقام والفرش الوثير في مسجد السيدة الرئيسة أم هاشم. قال: جمعا وصمت. صمت تماما. هل صار من مجاذيب السيدة؟

كان قلب نعمات قد انقبض في الليلة الكبيرة حين ضعفت الأنوار وبدأت الخيام تطوى، وسيقت الخراف والعجول والماعز المـــستبقاة

من المولد لتنحر أمام أعتاب البيوت، وتخلخل في بطء ما بني خلال أسبوعين، وجمع الناس علي عجل ما تبقي من الشاي والسكر والقرفة والخبز الناشف والكحك، ورصوا الحلاوة والحمص ولعب الأطفال والطرابيش بعناية لتوزع مع اللحوم علي الأهل والجيران ممن لم يشهدوا المولد، فلا تنقطع لهم عادة.

انقبض قلب نعمات، وظلت ساهمة والقطار يعود، واستشعرت ما سيحدث والمحطة تمر أمام عينيها وينزل زوجها دون أن تستطيع النزول، فيتسحب القطار إلي باب الحديد، وتخلع نعليها من باب الخلق حيث يبدأ زمام السيدة ومن الأدب ألا تنتعل شيئا حتى تتلمس أصابعها المقصورة المذهبة، متوسلة بصوت متهدج أن تنقذها من مصطفى علوان الذي اشترط أن تكون طالقا بالثلاثة لو عادت من المولد دون أن تسدد الدين، وأصر أن يرمي زوجها أمامه اليمين ويعلقه بانتهاء مولد شيخ العرب وعدم القدرة علي السداد، فوعدتها الرئيسة ألا يفوتها بعد الآن مولد، وأمرتها أن تأخذ من أحمد باشا راشد ثلاثين جنيها، وإن طلب دليلا، فهو لا ينام حتى يصلي علي جدها كل ليلة مائة مرة. انتبهت من غفوتها فقبلت الأعتاب وهي ترفع رأسها كمن تفيق من حلم لم يكتمل، خرجت تتفرس الوجوه في ضوء أعمدة الإنارة الشحيحة حول المسجد، خفيفة كمن تسير علي الماء بين الدكاكين المغلقة والمقاهي التي ترفع أبوابها الصاج استعدادا ليوم جديد. سألت رجلا جالسا علي المقهى يرتدي الخيش، أين تجد أحمد باشا راشد. انتصب الرجل مرة واحدة وسار أمامها:

ــ وعايزة إيه من أحمد باشا راشد؟

ــ تلاتين جنيه!

ــ بتوع إيه؟

ــ أصل الست أم هاشم هي اللي قالت لي.

ــ أيوه قالتلك إيه بالضبط؟

ــ بتقولك الست هات تلاتين جنيه بأمارة ما بتصلي علي جــدها ميت مرة قبل ما تنام.

كان يتوقف بين الحين والآخر كأنه لا يصدق:

ــ أيوه قالت لك الست إيه؟

كررت ما رأته تماما. لكنه كان يتوقف كل درجتين ويمــصمص شفتيه، ويتساءل:

ــ الست اللي قالت لك كده؟

ــ غريبة! سمعيني تاني.

ــ لو مش هتوصلني للباشا، قولي امشي، لكن ماتستهترش بيه.

ونزلت السلم فانزعج الرجل وفتح باب شقة قديمــة وعــد لهــا تسعين جنيها وأغلق الباب وهو يقول لها: يا عبيطة! فــي المــصلي علي النهر بعد ذلك بسنوات قال له سيد عبــد العــال: إن نعمــات عبيطة بالفعل لأنها لو كررت ما قالته رئيسة الديوان علي مــسامع الباشا لأعطاها عن كل مرة ثلاثين جنيها.

مع أذان الجمعة هبطت نعمات من القطار، تلطم خديها وتحــدق في كيس النقود الفارغ وتفتش في ذهول بهدومها عن النقود، فلجأت إلي الشوارع المهجورة والمقابر، وحول مبخرة البرتقــال، وعلــي حافة الرياح التوفيقي، تحوم حول المدينة هربا من مصطفى علوان، الذي أجبر زوجها علي تنفيذ يمينه ليستمتع بمطاردتها كغزال شــارد بجرمها الدقيق وعينيها الخضراوين. يطاردها بحصانه طوال النهار ويعود متعبا، لا يحرمه من النوم سوى نباح كلاب توشك أن تنهشه، إلي أن استيقظ ذات صباح علي عضة كلــب حقيقيــة تنــزف مــن

ظهره، طهرها له أندراوز ثم حوله إلي عيادة الكلب ليحقن في جدار بطنه بمصل الكلب. ولم يتبين مصطفي علوان صاحب مصانع الطوب إن كانت كلابا حقيقية أم مجرد هواجس إلا في العضة الثالثة حين خاطب أندراوز البندر فانتشر في المدينة صائدو الكلاب الضالة. سبع عضات جعلت مصطفى علوان يصرخ حين رأى نعمات لأول مرة برفقة سبعة كلاب، ويعترف علي الملأ بأنه تاب عن إقراض النقود بالربا ومطاردة النساء، وانتظم في التردد علي جامع البحر وتبرع بمائة ألف طوبة لمساجد الضعيف وعصفور وأبي نوار بيد أنه لم يستمتع بالنوم إلا بعد أن أخذه محمد البيه إلي شاطئ النهر وأمره أن يرمي اليمين بالثلاثة علي نعمات، وأن يطلقها أيضا في الظاهر علي يد مأذون شرعي، لكن نعمات كانت في ذلك الوقت هائمة في ملكوتها الخاص، لا تعي أنها تنطق كل حين بما في بطون الحوامل، أو تنبئ البعض بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، إلي أن التزمت الصمت تماما علي رصيف المستشفى الأميري.

كان يقاوم النزيف بتدليك الرحم وحقن المحاليل وأمبولات الميثرجين والكالسيوم والإنزابروست، وحشو القطن، وكان الحجر الثقيل يرتفع قليلا عن صدره كلما هدأ النزيف، فيطمئنها بنبرة تشي بالفرح، وعندما تشير له متسائلة عن حالة أروى الصغيرة التي ذهب بها راشد إلي مستشفى الأطفال فإنه يقول بنفس النبرة المتفائلة إنها جلسة في الحضانة تحت خيمة الأكسيجين وترجع جميلة وصحيحة، وأن عليها أن تكون مع نفسها فقط فهؤلاء الأطفال باندفاعهم الفطري نحو الحياة، يتخطون ظروفا أكثر خطورة

وينتصرون فقط برغبة الحياة. تشير إليه بأنها مجهدة فيقــول إنهــا ستنسى كل شيء بمجرد عودة أروى الصغيرة، ويصير مــا حــدث مجرد ذكرى، تثيرها الصورة التي ستوضع عما قليل في التــابلوه. بدت مطمئنة إلي كلامه الذي يسرى كالمخدر في جسدها وتغمــض عينيها على ابتسامة في سلام. انتهى من إيقــاف النزيــف فوجــدها رخوة وغير منتبهة لما يفعله، كطفلة خلدت إلي نوم عميــق علــي بساط سيطير، شفافة تبتسم. تناهى إليه أذان العــصر متراميــا مــن جامع البحر رائقا ومرجعا بالصدى كأنه الفجر، ولاح الكــون فــي سكونه وصمته المطبق أشبه بكائن خرافي هاجع ونــاعس. جالــت عيناه في الغرفة فراعته كمية الأمبولات الفارغة والقطن وطبق الدم الممتلئ.

ــ أروى .. هل أنت منتبهة؟

لم ترد. كانت نظرتها المبتسمة والمتطلعة قد تحولت إلي نظــرة مغادرة، ثابتة ومستسلمة، فيما ترامى الصوت من كل اتجاه مرجعا:

وعند زوال الحس فالجرح فرحة وذي رتب فيها اتساع المدارك

ألا إنما يسري المريد علي يدي وكل فتى ينأى فلــيس بســالك

ارتج السرير بعنف. انتقلت الحجرة من مكانها ثم عادت. كواقف علي سطح مركب اصطدم بالشط، اختل توازنه. ارتج كــل شــيء بعنف مرة أخرى، فسقط التليفزيون وانفــصلت مروحــة الــسقف.. طقطقة أشياء تنفصل عنوة، ودوي كتل تصطدم بعنف كأنما عمــارة أندراوز كلها تتزعزع. لم يعرف منذ انبثق من الحائط الذي تــصدع نور كأنه البرق ما الذي يفعله، يــصرخ أم يهــرع أم يثبــت فــي موضعه حتى ينتهي كل شيء؟ كان النور أكثر نصوعا من البــرق، فلم يستطع أن يفتح عينيه. مدت له راحتها فانجلى عن قلبه حجــاب.

ضوء أبيض لنهار يطلع في سماء صافية، يواصل الطلوع والبياض وهي ترفل أمامه كقطعة من بللور، تزداد شفافيتها كلما اخترقت بـه حجابا. لم يعد يشعر بملمس راحتها، إنما يجذبه خلفها الضوء وهـي توغل في نور خالص، حيث لم تعد تنزف. اخترقت به سبعين حجابا وأستارا خفيفة وكثيفة، نحو شمس كبيرة مشرقة. كانت في انطلاقها تزيح بذراعيها الأغصان الرقيقة فتنبعث الموسيقي من كل الأجواء، ويسيل الضوء كما الماء. مرا بأفراد وأقطاب وأوتاد وأبدال وأشـبال وأولياء وأمجاد وصلحاء وأنجاب ونقباء وأحباب وأكياس. اخترقـت حجابا فرأى رجلا بعباءة خضراء يخطب في حشد كبير مـن أهـل الأحوال المنشغلين عن بعضهم، كل في شـأنه، العـارف والمحـب والشغوف والذاكر والمتفكر والمعتبر والناطق والصامت والمستغرق والصائم والقائم والهائم والصائم المفطر والصائم الـصائن والقـائم الدائم والنائم الواصل والواصل الساهر والهـائم الفـاكر والواقـف الذاهل والذاهل الحائر والحائر الذاكر والداهش الواله والواهم الباكي والباسم الشاكي والمقبوض المشدود والضاحك المستبشر والخـائف الوجل والمختلط والمتوله والموله والصائح والنـائح. وكـان ينـشد فيهم:

ولا خوف عليكم حيث كنتـم فأرض الله خردلة أمامي
فإن شئتم ذروني حيث أقضي بعلمي في البداية والختام
فما غـيري بدنياكـم علـيم وما قمتم بأخراكم مقـامي

ينشد فيتمايلون. ينشد فيترجمون ويـصرخون بألـسنة مختلفـة، ويغلب عليهم الحال فيمزقون الثياب، ثم يتوبون توبة الهداية وتوبـة الكفاية، ينشد فيتوبون توبة الخواص عما خطر لهـم واخـتلج فـي أسرارهم. اخترقت حجابا. لم تعد عيناه قادرتين علي التحديق كلمـا

اقترب من شمس كبيرة ومضيئة. اخترقت حجابا. لــم يعــد يــرى الرجل بالعباءة الخضراء. فقط صدى صوته الذي يسمعه. هل كــان شيخه سيد عبد العال؟ لم يعد يشعر بملمس راحتهــا وهــي تــزيح الأستار. كأنه وحيد إلا من صدى صوت ينشد:

وإن آنســت نارا فاتبعـــني   تجدني عند حالكها ضياء
وإن أوجست كان الأمن عندي   لتسمو الروح آمنة سماء

من أي اتجاه يأتي الصوت؟ لم يعد يراهــا أو يــري الابتــسامة الشاحبة ولا ملامح الرضا والتسليم التي كانت فــي وجههــا. كــان حريصا هذه المرة ألا ينشغل بأي شيء، فلم يلتفت. صار غير منتبه إليها تماما. كان مستغرقا ونور الإشراق يغمر كــل شــيء، فأخــذه حبيبه من إياه وأفناه عن فناه، ونودي: ماذا تري الآن؟ فلم يرد. كان يراه وحده حينئذ، لا شيء معه، لا غيره ولا ســواه، يحــيط بكــل شيء، ماثل في كل شيء. قيل: فماذا تريد؟ فلم يقل حتى: أريــد ألا أريد.

أمام مزلقان قطار الزقازيق علي الرياح التوفيقي، توقف بــاهي السائح عن الإنشاد. كان قد عبر شارع المديريــة لأول مــرة فــي الصباح، وانحرف بالعربة حتى التمثال، وعبر النفق أســفل الــسكة الحديد رغم زحام سوق الإثنين، وعند المزلقان برك الحصان كمــا يبرك الجمل، فتوقف الصبي عن دق الدف، ونزل باهي عن العربة، وتوجه إلي عامل المزلقان والشرطي المرافق لــه وكانــا يــأكلان. السلام عليكم. عليكم السلام. ألا يوجد هنا مكان يــصلح للمــرء أن يموت فيه؟ ضحك عامل المزلقان والشاويش، وأشارا إلــي مكــان

قريب تظلله ست الحسن. كان غارقا في العرق حتى إبطيه فشكرهم وذهب حيث أشارا، فوجد حنفية فجدد وضوءه، وصلي في مصلي عامل المزلقان، ثم توجه إلي المكان الذي أشارا إليه، فمد ساقيه، ثم مات.

استولي الهلع علي الناس في الشوارع، وهرع المصلون من جامع البحر، ونظروا في الشوارع في ذهول، وترك الباعة محلاتهم مرعوبين، فالتقوا بالأفواج التي خرجت من محلج العطار. وكان راشد لا يشغله شيء سوى الوصول إلي مستشفي الأطفال وهو يحمل طفلته الزرقاء الملفوفة بالقطن، ويشير إلي السيارات فلا تتوقف، دون أن ينتبه حتى إلي سبب الجلبة، أو يدرك سوى أن رجليه ارتبكتا قليلا، كأن الأرض تحركت، أو اهتزت، وحين هم بدخول المستشفي وجد أفواجا من المرضي والممرضات والأطباء يستقبلونه في ذهول، فوق مكتب الطبيب بالاستقبال وضع طفلته، فقال الطبيب علي الفور: دخول أطفال مبتسرين، ثم نادى الممرضة، التي بكت ورفضت الطلوع. وقدمت تلهث نعمات الملط أمامها الكلاب السبعة في حالة رعب، وهي تضع صرة كبيرة علي المكتب وتهز راشد في رجاء. وبصعوبة بالغة فهم منها أن عمارة أندراوز انهارت، وقد شقت الغبار امرأة تمتطي حصانا بنيا ذا قوائم بيضاء، وهذه الصرة سقطت منها، ثم تركته لتعود إلي جلستها المعتادة بجوار سور المستشفى الأميري. كان بالصرة سبع مكعبات من ذهب خالص، وغزالة نافرة من الفضة وعقد من اللؤلؤ المنفرط، وثلاث تفاحات من ذهب، وسورة الملك مكتوبة كاملة بماء الذهب علي بساط من سندس مطوي بعناية.

لعشر سنوات ظل الرجل ذو الجلباب الأبيض مواظبا علي جلسته القرفصاء جاعلا ظهره لعمر أفندي ووجهه إلي عمارة أندراوز التي انهارت، وأعيد بناؤها وتسكينها، دون أن يبرح جلسته تلـــك كـــل إثنين متطلعا إلي شرفة في ذهنه هو، بـــين يديـــه أوراق (شـــراب الوصل)** التي اصفرت عن مائة وأربع وعشرين قـــصيدة تبـــدأ بالتائية وعدد أبياتها أربعمائة وثلاثة وعشرون بيتا. لا يقوم إلا بعـــد أن يتلوها كاملة، حيث يكون جسمه قد تصبب عرقا، حتى أن نجـــاح تشفق عليه وتصر ــ ربما بدافع امتنان قديم ــ أن تناوله ســـاندوتش وكوب ماء من مطعم النجاح أسفل العمارة الجديدة، فيرفع يديه خلف أذنيه في صمت وينصرف كأنه لا يراها، دون أن تعـــرف إن كـــان يشكرها أم ينوي للصلاة وهو يتجه إلي حيث لا يعرف أحد.

بعد أن تجاوزت سيارة حمراء عمر أفنـــدي بمـــسافة، توقفـــت ورجعت إلي الخلف بحذاء الرصيف. نزل صاحبها وأغلـــق البـــاب بسرعة، متجها إلي واجهة عمر أفندي كأنه يبحث عن شيء تـــذكره فجأة. وفيما عثر عليه وقرر التوجه للـــداخل، انتبـــه إلـــي مـــصدر الصوت:

ــ عادل الجندي؟

توقف ووقعت عيناه علي الجالس يشير بإصبعه نحوه. لم يعرف إن كان يستدعيه أو يمنعه من الدخول. عصر ذهنه لبرهة محـــاولا التذكر، بيد أنه لم يفلح، فاستأنف الدخول، لكن الجالس فاجأه:

ــ لا تجيء إلا حينما نطلبك!

ميز الصوت فالتفت مستغربا:

ــ معقولة؟

في مدينة صغيرة بلا لافتات، كان الغريب القادم من بني عبيد مركز دكرنس كأنه خارج في سبيل الله، يحمل في كتفه حقيبة بها جلباب وشبشب وفوطة وكتاب في النساء والتوليد وخطاب استلام العمل، يسأل أحد العابرين عن سكة المستشفى الأميري. أمام باب المستشفى لم يتركه العابر حتى أدخله مكتب الإدارة وأشار إلي سكن الأطباء. في كشك الولادة رآه، وفي المرور علي الحالات وفي عيادة النساء وتنظيم الأسرة وفي غرفة العمليات وحجرة الغيار. لم يأخذ الغريب الآتي من دكرنس من العابر أصول الولادة والجراحة فقط، بل أخذ أسلوبه في معاملة المرضى وذويهم وطريقته في اتخاذ القرارات الطبية، حتى طريقته في إبداء الملاحظات. صرخ من الدهشة:

ــ معلمي.. أيها العابر ما هذه الصدفة؟

وأخذه في حضنه، فأذهله الهزال وهو يربت ظهره ويقبل كتفيه:

ــ هل علمت أنك الوحيد الذي نجح من بين ثلاثة وأربعين طبيبا تقدموا لامتحان الماجستير في ٩٢؟

ترقرقت عيناه بالدموع، فيما لم يبد أنه اهتم بما سمع:

ــ المهم كيف حالك؟

ــ ما زلت أحيا كما ترى.

ــ أعرف.. وتزوجت أميمة، وافتتحت مستشفى الحياة، وأسميت أسماء وإبراهيم ومحمد.

ــ الفضل يرجع إليك.

ــ وما أحوال بني عبيد؟

ــ لم أذهب إلي هناك منذ سنوات.

ــ لم تسألني لماذا طلبتك؟

ــ وهل طلبتني؟ مررت بالصدفة ورأيت "عمر أفندي" فتـــذكرت أشياء تنقصني.

ــ الحقيبة والجلباب والشبشب؟

ــ نعم!

نقره في رأسه بمحبة وعتاب:

ــ أما زلت تعتقد أنها صدفة؟

ألجمته الدهشة. غاب فجأة كل ما حدث خلال عشر سنوات ولـــم يبق سوى خضوعه القديم، كأنه عاد لتوه من بني عبيـــد إلـــي هـــذه المدينة الصغيرة يسأل عن الطريق إلي المستشفى:

ــ فيم طلبتـني؟

أومأ له أن يدخل ويشتري ما انتوى شراءه، وحين خـــرج نظـــر مليا إلي الحقيبة وفتحها ثم وضع فيها "شراب الوصـــل" وأمـــره أن يتبعه.

سارا باتجاه النهر، وظلا يوغلان في البعد حتى تلاشيا.

(تمت: يناير ٢٠٠٣)

إشارات:

* من حكم بن عطاء الله السكندري.

** شراب الوصل للإمام فخر الدين الشيخ محمد عثمـــان عبـــده البرهاني

سيرة ذاتية

محمد إبراهيم طه:

ــ قاص وروائي، من مواليد مركز بنها محافظة القليوبية في ١٩مارس ١٩٦٣.

ــ يعمل طبيبا لأمراض النساء والتوليد بمستشفى بنها التعليمي.

ــ عضو اتحاد الكتاب، ونادي القصة، وجمعية الأدباء.

حائز علي:

ــ جائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠٠١ عن مجموعة "توتة مائلة علي نهر".

ــ جائزة الشارقة للإبداع الأدبي، المركز الأول، في الدورة الرابعة ٢٠٠٠عن رواية "سقوط النوار".

صدر له:

١ــ "توتة مائلة علي نهر" قصص قصيرة:

طبعة أولي: هيئة قصور الثقافة ــ سلسلة أصوات أدبية، أبريل ٩٨.

طبعة ثانية: هيئة الكتاب ــ مكتبة الأسرة ــ ٢٠٠٢

٢ــ "سقوط النوار" رواية .

طبعة أولي: دائرة الثقافة والإعلام بالإمارات العربية المتحدة ٢٠٠١

طبعة ثانية: هيئة قصور الثقافة ــ سلسلة إبداعات، أغسطس ٢٠٠١.

طبعة ثالثة: مكتبة الأسرة ــ هيئة الكتاب ٢٠٠٤.

٣ــ الركض في مساحة خضراء : قصص قصيرة ــ مكتبة الأسرة٢٠٠٦.